

مجلد الغزالي

الأخلاق والأعمال والاستعدادات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« فِي سَبِيلِ اللَّهِ »
« وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ »

مقدمة

هذه خلاصة بحث ألقيته دروساً على فريق من الذين اعتقلوا معي في منفى الطور منذ سنوات . وقد أحرقت أصوله الأولى في الهجمات التي كان يشنها علينا قائد المعسكر للإرهاب والإذلال . وحسبت أن الأحوال التي أوجت بخوض هذا البحث قد انتهت بالإفراج عنا ، وأني إذا عدت إلى تحريره فسيكون بحثاً علياً مجرداً من الملابس الأسيفة التي بدأ فيها .

وكنت في هذا الزعم واهماً ! . كانت ذكريات المنفى أعمق من أن تمحي وعودة النجوم إلى آفاقنا أسرع مما تتصور ! . وهل انجلت يوماً حتى يقال إنها عادت ؟ .

إن بلاد الإسلام في هذا العصر — وفي العصور القريية السابقة — تحمل كفلين من العذاب : أحدها من وطأة الغرب المعسكر بقواته الكثيفة من المحيط إلى المحيط ، والآخر من غدر الحكام المشايعين له ، ومن أوضاعهم الملققة وفسادهم العريض ..

احتلال مزدوج ضاقت الأمة به ذرعاً ، وأضناها أنها ما تنتهي من صراع أحدهما حتى يأخذ الآخر بخناتها . والغريب أنه في الأقطار الإسلامية التي لم يُسفر الاحتلال الغربي فيها ، أو التي رابط على حدودها وحبس المسلمين داخلها — كجزيرة العرب — تضاعف فيها فساد الحكم وازدادت أغلاله ،

كأنما كُتِبَ على المسلمين البائسين أن يحملوا قيدين حتماً ، فإذا لم يكن ثمة قيد أجنبى فإن الولاية الأنجيار (١) كفلاء بمنع قيد وقيد !

أما المشاهد التي عرضت لنا في السجون والمنافي فقد علمتنا ما لم نكن نعلم ! وقفنا على ضوئها معاني آيات كثيرة من الكتاب الكريم .

كنت أمرُّ بقول الله ممتنّاً على أهل بدر بالنصر الذي نالوه :

« وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ . . . »

فما كنت أدري إلا أن قوماً قروا بعد ضعف وعزوا بعد هوان . . ! حتى ضمنا جوف الصحراء الموحشة ، ووقفنا في قبضة ثلّة من العبيد ، يتزلقون لسادتهم بإجاعتنا وإرهاقنا وهم آمنون من أن صريخنا يهب لنجدتنا . وكنت أرسل الطرف فأقرأ في الوجوه معاني شتى . إنهم جميعاً مختطفون .

هذا تاجر مختطف من ماله ، فهو لا يدري عنه شيئاً ، وهذا موظف مختطف من عمله وأوقف مرتبه كذلك ، وكلاهما محزون الفؤاد ، لأنه لا يعرف أين زوجته ؟ وأين أولاده ؟ في المآقي عبرات منعها التجميل أن تسيل فهي جامدة لا ينتهي ما يعيشها ولا يقصى ما يجسرها . وإذا شغلتهم أنفسهم عن أهلهم ، وانحصروا في مشا كل حاضرهم عن ،اضيقهم ، نمرهم شعور المذلة بأنهم قلة ، وأن ثمن حياة الواحد منهم بضعة مبيت ، هي ثمن الرصاصة التي يُقتل بها . . ! هكذا قيل لنا في الطور . . !

ورأيت رجالاً نبلاء يتخلفون عن صلاة الجماعة ، لأن الخروق كثرت في الأسبال التي يرتدونها ، وشيوخاً معذيين ، حكى لي أحدهم أن أبناءه وأزواج بناته اعتقلوا جميعاً ، كأن الخطوة الموضوعة ألا يكون في البيت رجل . !

وتذكّرت ليلة أخرجت من سجن الدرب الأحمر في معصى قيود الحديد
ووضعت مع عشرات من أمثالي في سيارة بضاعة ، وكعوب البنادق تدق بين
أكتافنا حتى لا نحدث جلبة يستيقظ عليها أهل القاهرة النائمون . . . !

لقد رفضت ليلتئذ أن أقاد صامتاً إلى مصير مجهول ! ! فشقت الصمت
السائد بالتكبير العالى ، وأهبت بمن معى أن نزعج النيام بهتافنا ! ! مهما
انهال علينا من ضرب وسب . . . لكن القاهرة كانت مقهورة يسوسها
حفنة من الطغاة الفجرة الذين يسرقون الحكم من ذويه ثم يلعبون به كيف
يشاءون ، فخرجت منها وأنا أهمس إلى نفسى .

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد ! !
كنت أكره الاستبداد قبلاً كرجل خلقه ربه حُرّاً ، فلما لعت مرارة
القلة والاستضعاف والاختطاف ، ووجدت زمامى يلعب به السفهاء كما كان
صبية مكة يلعبون قديماً بالحبل الذى ربط فيه بلال بن رباح ، رسبت مشاعر
الحقد فى أعماق قلبى ، وفهمت كيف أن اندحار الأعداء يشفى صدور قوم
مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

وفى حلول المصائب يرهف الإحساس ، ويتساءل المرء عن قيمة أعماله
ومبلغ سدادها ، وقد عرانا من ذلك شيء كثير . قلت : هل أخطأنا ؟
وأجلت الطرف فيمن حولى ، فرأيت شباباً مقبلين على العلم والعبادة
يحتشدون فى الصلوات ، ويتضرعون فى الدعاء ، ثم يردّدون آمالهم فى الإصلاح
الذى طوردوا من أجله ، فإذا بهم معلقو الأفتدة بالكتاب والشئنة .

إنهم لا ريب يحبون الله ورسوله . ! !

أما خصومهم . . . فقد ضجّت من آثامهم الأرض والسماء ، إنهم
عُراة من تعاليم الدين وفضائل الرجولة ، أيديهم ملوثة بالدم الحرام ، وبطونهم
متخمة بالطعام الحرام ، وهام أولاء قد رموا بنا في هذا الوادي السحيق لنهلك
فيه انقطاعاً وضياءاً . . .

أشهد ما علمت أن دعاء المظلوم من أسباب الكون القعالة ، ومن قواه
المسخرة إلا في هذه الأوقات العصيبة . . . طالما دعونا ورجونا ، ووقفنا
في ساح الله مبتهلين ، فإذا به يُنملي للظالم في الاستكثار من الأوزار التي
يحملها حتى بهظته الأثقال ، فإزال ينوء تحتها حتى انقسم ظهره فأخلد
إلى الأرض .

ونجونا . . . وما كدنا . . .

ولما كان النسيان طبيعة في شعبنا يستغلها خصومه في المكربه ومعاودة
إذلاله ، فإني رأيت من واجبي أن أقض مضاجع البُغاة ، وأبعث في وجوههم
بصيحة تحذير ترد كيدهم في محورهم ، وتبصر الضحايا الغافلين بعواقب تراخيهم
وكسلهم . . . فخرمت أمري على إخراج هذا الكتاب للناس ١١ .

الدين والاستبداد

وسترى أن الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان ، فتعاليم الدين تنتهي
بأناس إلى عبادة ربهم وحده ، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية
سياسية عمياء .

وقد راعني أن أجد كثرة كبرى من الرجال العاملين في الجبهة الإسلامية
مذهوبين عن إدراك هذه الحقيقة الخطيرة . وهم حين يدعون إلى الإسلام
ينسون ما أقادده العامة من تجارب في صراعه للحكام الظلمة الذين أساءوا إليه ،

وعلموه أن يحدد علاقته بهم في دساتير مضبوطة وقوانين محكمة ،
حقاً أن الدساتير والقوانين تأتي في الحل الثاني بعد تهذيب النفس
وترقية الضمير . غير أن مجيئها في الحل الثاني لا يعنى إلغاءها أو الغض من
أثرها فإن القيمة الذاتية لهذه الدساتير ، ونبل الفكرة التي أوحى بوضعها ،
ونخبث المؤامرات التي حيكت لتعطيلها ، وعظم الفائدة التي تتحقق من رعايتها ،
لدين الله ولدنيا الناس معاً . . . ذلك كله كان يوجب على العاملين للإسلام
أن يحددوا موقفهم بإزائها — وهو موقف يستحيل أن يكون في مصلحة
المستبدين ، الذين يؤسسون أمجادهم على امتهان الجماهير والعبث بمصالحها .
وإذا لم يسمع صوت الدين في معركة الحرية فمتى يسمع ؟ وإذا لم ينطلق منهم
إلى صدور الطغاة فلن أعده إذن ؟ ؟

لقد تتبعت أقوال طائفة من المتحدثين عن الإسلام فوجدت تصورهم
لأسلوبه في الحكم غامضاً . وآذاني أشد من ذلك أنهم وقفوا مكتوفي الأيدي
أمام الافتيات المستمر على سلطان الأمة كأن ما يحدث تحت سمعهم وبصرهم
خارج عن الدائرة التي يختص الدين بالفتوى فيها . . !
ولقد فهم أحد الظرفاء هذا الموقف فأرسل إلى لجنة الفتوى هذا السؤال :
رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التي حدثت سنة كذا مزورة . فهل
تطلق امرأته ؟
ولم تقع لجنة الفتوى في هذا الشرك ! ولن تقع ولو بقيت المرأة معلقة
أبد الدهر .

إن هذا الموقف مسمىء إلى الإسلام إساءة بالغة ، يطمع الدعوات
الملحدة أن تمتد حيث انكش بل إنه يرفع الثقة بهؤلاء العاملين للدين
ويعرضهم لأقصى التهم .

وقد قرأنا أخيراً أن تركيا رأت — نزولاً على رغبة الأمة — أن يعيد
حصص الدين إلى المدارس . فانظر إلى القيود التي وضعتها لهذه الإعادة ، وإلى
الزاوية التي تطل منها على الرجال الذين وكلت إليهم هذه المهمة .
يقول الأستاذ محمد فريد وجدى :

« مما يجب أن نلفت النظر إليه في هذا الشأن أن الأمة التركية الممتلئة في
مجلسها النيابي لم تجعل لرجال الدين القوامة المطلقة على ضمائر الناس ،
ولا الاستبداد بحق التوجيه الروحي لهم ، كما هي الحالة لدى الأمم الشرقية ،
بل جعلت لنفسها القوامة عليهم واشترطت النظر في البرنامج الذي يضعه
رجال الدين للتعليم الديني ، والكتب التي يؤلفونها لنشر الدين وتعميمه .

واشترطت ما هو أخص من ذلك في الحد من حرية رجال الدين مبالغة
في المحافظة على حرية الضمائر ، وذلك بأن حظرت أن تفتح مدرسة للتعليم
الديني حيث لا توجد مدرسة للتعليم العلماني ، أي التعليم الخالي من التأثير
الديني ، وهي ترمى بذلك إلى درء خطر العدوان على حرية الضمائر .

والذي يلوح لنا أن الأتراك لا يخشون من سيادة الروح الإسلامية على
جماعتهم ، لأنهم يعرفون ما للإسلام من فضل في تنوير العقول ، وتقدير
الحقوق الطبيعية للإنسان ، وفي عنايته بنشر العلوم والفنون ، وفي حكمته في
قيادة الجماعات في معترك المزاومات العالمية ؛ كل هذا يعرفه الأتراك ويقدرونه
حق قدره ، وقد وضعوا فيه كتباً ، ولكنهم بتقريرهم هذه التخفظات يسيئون

الظن بالذين يتولون أمره ، فلا يعرفون مدى إدراكهم لروح الإسلام السامية ومبلغ فهمهم لحكمته العالية ، بل يعلمون أن ممن التحضوا شعار الدين أفراداً لا يقدرّون تبعة قيادة النفوس قدرها ، فيضطرب سيرهم في توجيهها ، فيحيدون بها عن الصراط السوى إلى سبل يتأدّون منها إلى غايات بعيدة من الجود العقلي ، أو الانحلال الخلقى . وليس هذا مما رمى إليه الأتراك من ثورتهم التي ضربت بها الأمثال ، وسجلت لم صفحة خاصة في تاريخ الوطنية الصحيحة » ونحن نعرف أن الثوار الأتراك كفروا بالإسلام وخلافته عقيب هزيمتهم في الحرب العظمى الأولى .

والحق أنهم جمحوا في تحديد المصدر الذي تسرب منه الخطر على كياناتهم فضلوا ضللاً بعيداً . ولو عقلوا لكفروا بالرجال الذين أذلّهم أو سكتوا على إذلالهم ، ولقدموا إلى محكمة من صميم الشعب تُسمع فيها شهادة عدلين لا ترتقي إلى نزاهتهما شبهة ، أولها كتاب الله ، والآخر سنة رسوله ، ثم يقول القضاء بعدئذ كلمته . وهي كلمة يسود لها وجه الخليفة المستبد ومن حوله من مشايخ الإسلام . . . !

إننى — فى هذا الكتاب — أصف الإسلام ، وأدمغ الرجال المفرطين فى حقه وإن اتسموا له وأريد أن يدرك العاملون فى مختلف الجماعات والهيئات الإسلامية أن خدمتهم لدينهم لن تتم ولن تخرج ولن تسير فى صراط مستقيم إلا إذا نضج فى أذهانهم الفهم السليم لحقوق الإنسان ، واكتمل فى صفوفهم الدفاع العنيف عنها . . .

قبل أن نستفيق من دوام الخنة التى نزلت بنا وقبل أن نلم شتاتنا من حرب الإبادة التى سلطت علينا ، دوى الفير لإجلاء الإنجليز عن ضفاف

القناة . . . حسناً ! . إن الرجال ذوى الحساسية القوية برسالتهم وتبعات الإصلاح الملقاة على كواهلهم ، يشعرون كأنهم المعنيون عند كل نداء ، المطلوبون عند كل نجدة :

لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارص ؟ خالهم إياه يعنوننا . . . !
وطرد اللصوص الحمر من كل بلد مسلم فريضة محتومة . ونحن نعرف أن للاستعمار فكين حادين يتركب منهما فه الضليع ، الفساد الكامن في الداخل والعدوان الوافد من الخارج ، وبين الفكين تدور الرحى وتهشم الضحايا .
وضربة قاصمة لأحد الفكين تنقذ ألوف المعذيين ، وقد كرسنا حياتنا لهذا المسعى الجليل .

وما يستطيع واحد منا أن يتعاضد عن الفساد المنتشر هنا وهناك . وقد حاول آباؤنا من سبعين سنة أن يمنعوه ، وأن يردعوا مرتكبيه . ولو ترَكنا اللصوص الحمر نسوى أمورنا وحدنا لكانت مصر اليوم من أعظم دول العالم . ولكنهم أقحموا أنفسهم في شئوننا ليزيدوها خبالا . وكلما حاولنا سلوك طريق لتصحيح أوضاعنا أقاموا في وجوهنا العراقيل لنعجز ونكف .

وعندما اندلعت الثورة المصرية الأولى وظفرت البلاد بدستور سنة ١٩٢٣ أبت السلطات المحتلة إلا الإخلال بسير الحياة النيابية ، وإيقاع الخلل في دوراتها وإتاجها ، حتى لا تحكم الأمة نفسها بنفسها — كما هو الواجب — فكانت « البرلمانات » في عهود كثيرة غطاء لسرقة الحكم وإذلال العامة وإضاعة الحقوق . وفشت الرشوة والاحتیالات والاعتیالات .

كتب الأستاذ أحمد الصاوى في يوم الاحتفال بذكرى الدستور يقول :
كان قلبي يريد أن يفرح بيوم الدستور ، لكن أين الفرح من قلبي ؟
إنه بعيد . . . بعيد ! . . . دلونى كيف أفرح والصحف مخضبة بدماء الشرف ،

ودماء الشهامة ، ودماء المروءة ، ودماء الفضيلة ، ودماء الذمة والأمانة ، أى
مخضبة بدماء الوطن ! . .

ماذا نقرأ فى الجريدة فى يوم واحد ! .

نقرأ عن قضية الجيش الكبرى التى تنتظر المحاكمة ، والتى تمثل مأساة
فلسطين . .

نقرأ قضية انفجار الذخائر فى القلعة التى كادت تودى بحياة سكان القاهرة
جميعاً وكانت كارثة كبرى .

نقرأ قضية استيراد الأسلحة من الصحراء الغربية خلال حرب فلسطين
وما فيها من اختلاسات . .

نقرأ قضية التموين التى بلغت فيها التهم ١٢ تهمة خاصة بصفقات الذرة
السودانية والشاى ، والصفيح ، وأغنام برقة ، والصودا الكاوية ، وأخشاب
باسمى الخ !

وصيحة النيابة التى هزت جوانب العدالة إذ تنبه إلى النقص فى القانون
وتطلب علاجه بسن تشريع . .

نقرأ قضية الاختلاسات الكبرى فى وزارة المعارف التى بلغت ربع
مليون جنيه !

نقرأ تحقيقات نيابة الشئون المالية بالإسكندرية فى تهريب سيارات إلى
إسرائيل عن طريق بورسودان ! .

نقرأ تحقيقات نيابة المنشية فى السرقة والاختلاس فى مخازن تفتيش
مبانى الغرب !

نقرأ الفضيحة الكبرى فى اختلاسات مخازن وزارة الصحة . .

نقرأ المحاكمة فى قضية الاعتداء والأوكار ونسمع ما تقشعر له الأبدان . .

نقرأ ، ثم نقرأ وياليتنا لا نعرف القراءة والكتابة . .
رحمك يا رب هل هذا كله في يوم الدستور ؟ .
لقد جف ريقنا من الأسى ، ولكن وصيتنا إلى أبنائنا أن يذهبوا يومًا ما
إلى حيث يرقد الخونة أيا كانوا ، فيبصقوا على قبورهم .
لكن إخوان الكنائس لم يذهبوا إلى قبور المهلكي ليبصقوا عليها .
بل ذهبوا إلى الميدان ليحضروا قبوراً أخرى للإنجليز الذين جلبوا هذا
الشركه .



بنفسى أولئك الأبطال الذين ذهبوا بأسلحتهم الصغيرة ليقاتلوا
« امبراطورية » هزمت جن العالم في حرين كبيرتين ، بنفسى أولئك الأسود
الذين طلوعوا بالردى على أعدائنا فأذلوا كبرياءهم ونكسوا ألويتهم . . .
بنفسى أولئك الأحرار الذين قاتلوا اليهود في فلسطين وقاتلوا الخونة في
مصر ، وقاتلوا الإنجليز أخيراً في القناة . .



صنعهم المحارب الخاشعة فعاشوا موصولى القلوب برب الأرض والسماء
وطهرتهم مثلهم العالية من كل شائبة فازدانت بهم فضائل التجرد
والعفة ، والإيثار . !

وبرزوا في الصفوف الأول يوم تجاوب الصدى في جنبات الوادى يهتف :
حي على الكفاح !

وتجدد شباب الإسلام من شبابهم ، وتألفت آماله العذاب في وميض
عيونهم وقطوب جينهم . !

وعادت للأمة المهيضة ثقتها بعد ما كادت تنهار . ١ وتراجع خصومها دهشين ، وهم يتساءلون : أبقى هذا اللون من الرجولة الناضجة حيا في بلاد حرمناها من دروس الرجولة ، وردمنا أرضها بالمغريات ، والمثبطات . ؟

أبقى الإسلام قادرا على خلق هذه الفئات التقية النقية تعيد في عصر الشهوات المهتاجة ذكريات الصديقين والقديسين ، وتنفخ من روحها في معاني القداء والنجدة فإذا بها حقائق تملأ أرجاء العالمين . ؟

أولئك هم إخوان الكتائب الذين يحاربون انجلترا . . . انجلترا القوية بيأسها وحديدتها ومن ورائها دول العالم تؤيدها في عدوانها ، أو تعتذر عن إجرامها ، أو تصطنع الحياد الخسيس في معركة بين الحق ، والباطل لا يجوز فيها حياد . ١

أما رجال الكتائب الذين يحاربون بأخف الأسلحة وأردئها فن وارئهم . . مستوزرون يرون الحكم مغنما ، ويسعون إليه في جنح الظلام ، لا . . . إنهم لا يحسنون السعى بشيء ما ، إنهم ينتظرونه كما ينتظر المقامر مفاجآت الربح الوفير ، من غير عمل تافه أو خطير . !

أجل . ومن ورائهم كذلك مواخير مفتحة الأبواب لكل طارق ، مبدولة الأعراض لكل سراود ، سادرة في غمرتها تحيا على السرور والمتاع ، وتسمع الألحان الطروب والموسيقى المرحة . . إنها في عرس دائم حتى ينخر عليهم السقف من فوقهم .

ومن ورائهم أيضا مشاعر متقطعة ووجوه ساهمة ؛ ربما استقبلت جثث الشهداء بحزن وربما ودعتها بدمعة أما الثأر لهم ، أما الإغراق على أسرهم فشيء آخر !

ولا عجب فهم لا يكثرثون بأخبار القرآن فكيف يهتمون لأنباء الناس ؟
أمس سمعت القارئ يتلو من مسجد الحسين . ودار الإذاعة تنقل إلى العالم
قراءته ، فإذا به يتلوى وهو يغنى بالآية الجليلة « ويسألونك عن الجبال فقل
ينسفها ربى نسفا . فيذرهما قاعا صنفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » وذلك
وصف يقف له شعر الرأس . ولكن المغفلين الملتغين بالقارئ يستقبلون هذا
النبا الخطير ، بماذا ؟ بهذه الكلمات .

« يا صلاة النبي . الله الله . كده كده يامى الشيخ » . !

أبعد ذلك عبث ؟

لقد تبعت عيني هذا الشباب المهاجر بدينه وخلقه من الدنيا الصاخبة
بالمجون ، إلى منطقة الخطر حيث يعسكر الصوص الحمر ! وقدرت أى توضحية
نبذلها ونحن نرسل هذا الشباب ! .

كانت العواطف المتناقضة تتصادم فى قوادم مقبلة مدبرة وأنا أسأل
نفسى : أفلا نستبقى هذه البواكير الطاهرة لتنظف بها هذه البيئات الملوثة ؟
وننجد بها أنفاس الشياطين التى زحمت البر والبحر بالإلحاد والفساد ، والتحلل ؟
لوددت ذلك ! غير أن الضلال المقيم هنا يربطه بالاحتلال الوافد نسب قديم
وسبب متين . ولئن أعلنها حربا شعواء على الأوضاع التى خلقها الاستعمار
بيننا ، فلن ننسى أن هذه الأوضاع ذنب الأفعى التى أهاجها المجاهدون
بوخزاتهم ، وآلو على أنفسهم أن يدقوا رأسها على ضفاف القناة وفى
صحراء التل الكبير .

إنتى أضن بهؤلاء على الموت ، ولكن الله عندما يصطفى عبداً للشهادة
يقذف فى قلبه ثورانا لا يهدأ حتى يأخذ أهبتة ويلبس عدته وينطلق إلى
المركة الناشبة ليدمر الباطل ويسحق الظلم ، ولن يعود منه إلفاته أما روحه

فكانت الوهج الذي أذاب بأس الكافرين ثم صعد بعد إلى عليين .

أضن بهم على الموت ؟ لكن الله لا يضن بهم على الاستشهاد ولا يضن بالشهادة على أمثالهم وهو القائل : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » ، وفي المصارك الضخمة النتائج يكون القطاف الأول من هذه الصفوة الممتازة ، ألا ترى إلى حروب الردة ؟ لقد تهاوى القراء على وردها حتى تفانوا . . وخشى على القرآن بعد تقديم فجمع على عجل في السطور الذي حفظته بعد أن ضرجت في أكفانها الصدور التي طالما رددته : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » .

وعلينا واجب — نحن القابعين ، مع الأسف ، في مؤخرة الصف — علينا أن نطهر الجبهة الداخلية من وراء إخوان الكتائب ! فتمحق كل ركن يحاول الإنجليز أن يرتكزوا عليه في بقائهم ! ونحبط كل مؤامرة تفتح للإنجليز نافذة من الأمل في سرقة بلادنا ، ونهب خيراتنا واتهاك أعراضنا مثلما أتيح لهم ذلك سنين عددا في ظل معاهدة سنة ١٩٣٦ الملغاة .

إن ذلك جهد ؛ إن قننا به مخلصين شاركنا المجاهدين في تحقيق الغايات التي يبذلون النفس والنفيس للحصول عليها .

الدم الغالي يكتب اليوم تاريخ أمتنا ، وقطراته العزيرة تتساقط من الأبطال المجدلين في أطراف الميدان البعيد . . إننا لانخشي وحشة الموت على الشهداء الذين يجودون بأرواحهم وهم يرفعون ألوية الحق ، فما عند الله خير لهم وأبقى . . .

إنما نريد شيئاً واحداً . . . نريد أن نطمئن الجنود الداهيين إلى ساحة
الوفى أن الحق الذى يعتز بتضحياتهم لن يهتز بعد ذهابهم ، وأن الغايات
النيلة التى يطلبونها لأمتهم منسهر عليها حتى تمتد جذورها فى الأرض ، وتعلو
مروعها فى السماء . . .

إنهم يقاتلون الإنجليز ، لأن الإنجليز خرجوا من ديارهم بطراً ثم جاءوا بها
إلى هذه البلاد ليدلوا من أعز الله ، ويقفروا من أغنى الله ، ويصرفوا الأمة
عن دينها ، ويلقوها بالملاهى والصغائر ، مستعينين على ذلك بمن سفه نفسه
من المتحللين الذين ليس لهم خلق ، والمتكبرين الذين ليس لهم دين ، إنهم
يقاتلون الإنجليز لأنهم يريدون لأنفسهم ولإخوانهم من ورأهم الحرية
والعدالة والفضيلة فهم خصوم العبودية والظلم والرديلة فى كل مكان تقع فيه
ومن كل إنسان تصدر عنه . . . ويجب أن تتوطد فى مجتمعنا هذه المعانى
جميعاً ، وأن نحارب عليها كل من يجادلنا فيها ويباعدها عنا ، من الإنجليز ،
أو من يخدم سياستهم الساقطة ، أياً كانت جلده وسبته ! . . .

لنفصح عما فى ضمائرنا ، ولنقلها كلمة صريحة حاسمة . . . إننا نريد أن
نستطعم مذاق الحرية التى تنشهاها ، ونبعث أحب الناس إلينا ليدفعوا عنها
العدوان . . . وأن يعيش الوادى كله فى ظلال دستور محترم ، وقوانين مرعية
وحكام أمناء .

عندما رأيت صورة جندى إنجليزى يضع قدمه على صدر عامل مصرى ،
ويهوى بالكرباج على جسده الطريح ، عرتنى رعشة غضب وقلت : سننتقم
من الأوغاد فى يوم قريب . . .

ثم سبحت بى الذكريات الأسيفة ، وتراقصت أمام عيني صور التعذيب

التي نزلت بنا في العهد البائد ، يوم عطل الدستور وساد الإرهاب ، واستبدت
بوطننا للمسكين عصابة من الفراعنة الأفاكين . . .

فهمت : لن نسمح بهذا أبداً إن الأهداف التي يقاتل لها إخوان
الكتائب يجب أن تبقى وأن تصان . . . إننا نحارب الإذلال الذي ينزل
بنا من الأجانب ونحارب كذلك أية محاولة لإذلالنا من أذناهم وأشياهم ،
لقد اشمأزنا من صورة المصري الجائى تحت أقدام الإنجليزى يلقى السيوط
للوجعة ، ولنحن أشد اشمأزاً من مثل هذه الصورة يوم تكون لمواطن مضهد
يضر به حاكم غاشم ، وقد حدث يوماً ما أن علق المتهمون في قضايا الأوكار
والسيارة الجيب في كلاليب الحديد كما يعلق الجزار ذبيحته التي سيقطعها
للآكلين ! ثم انتهت على أبدانهم الجلادات الكاوية . . . ودولة الحاكم
العسكري إبراهيم عبد الهادى باشا واقف ينظر ويتشم ! . .

وقرأنا ماصنع الإنجليز بأسرانا لديهم ، وكيف منعوا المنام عن أجفانهم ،
والطعام عن بطونهم ، وتركوا تيارات الهواء في برد الشتاء تخترق عظامهم ،
وسلطوا الماء البارد من تحت الأبواب الموصدة ليحرمهم نعمة الجلوس على
الأرض ! . . وتحدث الناس عن هذه النذالة التي يقتربها اللصوص الجر مع
الجنود المأسورين . . . والحديث ذو شجون . . فقد نكأ جروحاً قديمة ،
وأعاد على الألسنة قصص التنكيل والويل التي وقعت للمسجونين والمعتقلين
أيام الباشا عبد الهادى وحكمه العف النظيف ! ! .

فإذا الأسلوب واحد ، والمجرمون سواء ، واعتقد الإجماع على أن الأهداف
التي يقاتل لها إخوان الكتائب يجب أن تقرر وتحمى . . وأنه لا بد من حرب
الاحتلال ، والأوضاع التي تمهد له أو تقوم في ظله . .

ذلك وما تزال الحروف التي كتبها الطيار الشهيد « أحمد عصمت »
محفورة في ذاكرتي . . . إن هذا الشاب الحر ذهب ليقا تل الأندال المعتدين ،
تاركاً لنا بيتاً كان ربّاً له ، وأسرةً كان قواماً عليها ، وهامى ذى رسالته
إلى أخيه : —

« أخى حسين . . .

« إن حُبّى لوطنى هو الذى حبّبَ إلىّ سفك دِماء الغاصب المستعمر
البنهض . . . فذهبت إليهم غير مُنتمٍ إلى هيئة أو جماعة . . . ذهبت إليهم
بدافع إلهى وإيمان قوى . . . ذهبت إليهم مسروراً فرحاً ، وكأنى ذاهب إلى
رحلة صيد ، مثل الرّحلات التى كنا نقوم بها . . . فإن مت فاعلن إلى كل
مصرى أنى شاب متزوج ولى ثلاثة أطفال ولى أمى وأخوانى ، ومع هذا فقد
ضحيّت بنفسى ليعيشوا هم أحراراً فى بلادهم ، فالحرية لا تمنح ، ولكنها تؤخذ
بأعزّ التضحيات . . . فإلى اللقاء فى كلتا الحالتين إن مت أو عدت ؟ »
أخوك : أحمد

فى الجماعة المتكافلة لا يمكن أن تضع هذه الأسرة أو يهون ذلكم البيت ،
يجب ألا يفقد الأولاد والأخوة من رجلهم الراحل إلا وجهه فحسب ، أما برّه
بهم وحنوه عليهم ، أما نفقاته التى كان يبذلها ، أما كفالته لأطفاله الصغار
ورعايته لأخواته البنات ، فتم أن تقوم به الأمة نيابة عنه . . . أريد أن بغض
الشهيد عينيه وهو يوقن أن من ورائه ضيائر يقظة وأفئدة حانية . . .

إن الرجال الذين يزحفون على الصخور ، وتفجر من تحتهم ومن فوقهم
صواعق الموت ويستهلكون آخر ما يملكون فى سبيل إخراج الإنجليز ،
إنما يفعلون ذلك — بداعة — ليعيوا هم أنفسهم أو لتحيوا ذراريهم من

بعدم في مجتمع يتحرك بروح العدالة ، ويتعاون على البر والتقوى ولا يتصور أن يضع فيه عاجز بلة أن يهون فيه مُضَحَّر نبيل جاد بنفسه لسيا تسعد أمته وهل حاربنا الإنجليز إلا لأنهم لما سرقوا حرياتنا سرقوا معها مقومات حياتنا ، فكادت وجوههم تنشق منها دماء العافية على حين تنظر إلى جمهورنا التاعس فترى أقواماً :

صفر الوجوه عليهم خلع المذلة بادية ؟
ألا إنه من حق أولئك المقاتلين أن يطعنوا إلى استقرار الأهداف التي يتفانون لإقرارها وأن تسير الأمور عندنا في هذا المجرى العتيد . . .

والأمة في نظر الإسلام جسد واحد . . . فما يجوز أن يفجع بعضها ويفرح بعضها . . . وما يمكن أن تتجاوز هذه المتناقضات في جسد واحد أبداً ، ولقد رأينا أمماً تخوض حروباً كثيرة ، فما رأينا أمة واحدة ترسل جنودها إلى الميدان ليموتوا وتدع من ورأيهم طلاب المتع الحرام يكرعون منها حتى يخرج الرى من أظافرهم . . .

ما سر هذا الخلل ؟ ما علة هذه النقائص ؟

إن الأمر واضح . . . أشيعوا الحرية والعدالة والفضيلة ، أقيموا فرائض الإسلام على أنقاض الوثنية السياسية والاجتماعية ، تظفروا بوضع متناسق في الداخل ، وكرامة موفورة في الخارج .

وإلا . . . فلا إسلام . . . ولا سلام ؟

ممكن السداء

هناك مشا كل تبدو للنظرة الأولى شديدة التعقيد ، وقد يبدو للمرء أن التماس حلولا يتطلب عبقرية فاذة ! .

وقد تُترك هذه المشا كل على غموضها فلا يزيد لها مر الزمن إلا تعسراً وإيهاماً !

ثم يتواضع الناس بعدئذ على اعتبارها مشا كل مزمنة ، يدورون فيها ولا يخرجون منها ، لأنهم لا يجدون من حلقتها المفرغة مخرجاً
وأشد هذه المشا كل تعقيداً ما كانت حلوله قائمة على البداهة وما كانت مفاتيحه في متناول اليد ! .

ذلك أن الذهن أول ما تصادفه معضلة يذهب بعيداً ليكشف سرها ، فإذا لم يكتننه أبداً في المذهب ، وكلما عزّ عليه فقدانه وأوغل في نشدانه كلما ازداد حيرة وضلالاً
ولو عاد حيث كان لوجد الحل قريباً منه

وعند ما تحدى (خريستوف كولبس) حساده أن يوقفوا بيضة على طرفها حاولوا كثيراً فعجزوا فلما ضغطها على طرفها قامت مستوية ! فصاح منافسوه : كنا جميعاً نستطيع ذلك . . . ! قال : ولكنكم لم تفعلوا . . . وهل كان كشف أمريكا إلا كذلك ؟ .

إن النظريات الهندسية المقررة تعتمد على طائفة من البدهيات التي لا ريب فيها . والتمارين الهندسية التي تظهر للطالب وكأنها ألغاز مُعمّاة ليست إلا بناء يعتمد في دعائمه وجوانبه على هذه النظريات المسلمة ، وقد يُعمل الطالب فكره للوصول إلى سرها ويتصبّب في ذلك عرقاً . . . بيد أنه لن يوفق إلى ذلك إلا إذا كان على معرفة جيدة بالنظريات المقررة وما تستند إليه من بداهيات

وعلاج الدين لشئون الناس يقوم على هذه المبادئ جميعا .
إن بعض الواهين عند ما يروهم فساد الحكم وشرور المجتمع فيذهبون
إلى الدين يطلبون الحل لما يمانون من أزمت معتة ، ربما توقعوا أن يمدم
الدين ببرامج مفصلة وشروح دقيقة لما يقع ولما يُتوقع من طغيان . وما درّوا
أن الظلام الضارب في كل أفق يرجع إلى تجاهل وصية بدهية من وصايا
الدين ، أو الخروج على تعليم واضح من تعاليمه .
وأن الأمر لا يتطلب فلسفة ، ولا بسطا لآراء ، ولا ترديدا لمذاهب ،
مقدار ما يتطلب التقيّد التام بما فرضه الدين في ناحية ما من النواحي
التي طرقها . . .

بعد الحرب العالمية الأولى قامت عصبة الأمم ثم انهدمت . وبعد الحرب
العالمية الثانية أسس المنتصرون هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن . . . ثم كشفت
الأيام عما في هذه المؤسسات من هوار ، وما اقترفته في حق البشرية من خزي
وعار . . . وقد يحىء من النقد من يُبين في أسفار طوال علة ما أصاب هذه
المؤسسات من فشل .

ومها أسهب في البحث والدرس فلن يخرج في بيان عللها إلا بأنها
قامت على الطمع والكذب والنفاق ، وأنها قلما استهدفت إحقاق حق
وإبطال باطل . . . خفة من الدول القوية تبعث بطائفة من الساسة الدجالين
يسترون مخالبتهم وراء قنازات من الحرير ، ويضعون أيديهم قسراً على حقوق
الآخرين ، ثم يعتلون المنابر ليتكلموا في العدل الدولي والسلام العالمي . . !
وهم يطيلون الكلام في هذه الموضوعات المختلفة ، ريثما يكملون استعدادهم
لحرب أخرى ، تدور بينهم أنفسهم لإعادة تقسيم الدول المسروقة على نحو
يشبع نهب المنتصر ، ويشير حفيظة المنكسر ، فهو يتربص الدوائر بخصمه ،

حتى إذا صنعت له أشعلها حرباً طاحنة وهكذا دواليك . . .
الطبع ، والكذب ، والنفاق !!! ماهذه الخصال ؟
إنها جملة من الرذائل حرّمها الدين ودرس تحريمها في كتب الأطفال . . .
أجل في كتب الأطفال !!! فهي بدهيات خلقية واضحة ، ولكن شدة
وضوحها أبهرتها وطال على غموضها الزمن ، وشب الرجال عن الطوق وهم
يحسبون هذه الفضائل ذكريات قديمة ، ثم خاضوا في شئون الدنيا وهم
بعيدون عنها ، فلما صدمتهم عوائق الضلال الذي صنعوه بحثوا عن الخلاص
من مأزقهم . . . بحثوا عنه في مظانّه القصيّة ، وافترضوا الفروض ، وابتدعوا
الآراء ، ولم يزدادوا بذلك كله إلا بعداً عن الحق ، وشروداً عن النهج . . .
ذلك أن سر الإيقاظ أقرب إليهم مما يتوهمون ، إنه في طائفة من الفضائل
التي جحدوها . . . وفي هذا الدواء الساذج الذي يقدمه الدين علاج أي علاج
لما استعصى من مشاكل ، ولما استوطن من أوبئة جرّت على العالم كله
الخراب والدمار . . .

والاستبداد السياسي الذي وقعت الشعوب المسلمة فريسة له من أمد
طويل ، وظلت إلى اليوم ترسف في قيوده ، ليس مرده إلى أن الإسلام
نقصته عناصر معينة ، فأصيب معتنقوه بضعف في كيانهم كما يصاب المحرومون
من بعض الأطعمة بلين في عظامهم أو فقر في دماهم . . .
كلا !! ففي تعاليم الإسلام وقاء بحاجات الأمة كلها وضمان مطمئن لما
تشتهى وفوق ما تشتهى من حريات وحقوق ، إنما بطشت مخالب الاستبداد
ببلادنا وصبغت وجوهنا بالسواد ، لأن الإسلام خولف عن تعمد وإصرار ،
وطُرحت أرضاً البدهيات الأولى من تعاليمه ، وقام في بلاد الإسلام حُكام

تسرى في دماهم جرائم الإلحاد والفسوق والمنكرات ، فخرجوا سافرين عن أخلاقه وحدوده .

ومع ذلك فقد فرضوا أنفسهم على الإسلام إلى يوم الناس هذا . . . ولو أن الإسلام ظهر يوماً بحريته ، وأمكنته الأقدار أن ينتصف لنفسه ، لكان جمهور هؤلاء الحكماء بين مشنوق ومسجون . . . والمخالفات التي وقعت للإسلام في بلاده من شتى الحكومات لا تفتقر إلى ذكاء حاد في إحصائها وإثباتها — فهي كما قلنا تتعلق بالبدعيات الأولى — ولكن المشكلة ليست في معرفة الحق . . . بل في قول الحق مهما كانت النتائج . والفاسقون عن أمر الله من ولادة الأمر لما استبدوا واستعبدوا عرفت الرعية عنهم الكثير من المناكر ، ثم ابتلت ما عرفت أو تناجت به في خفوت !

فإذا أردنا أن نعلن على هذا الفساد حرباً شعواء قلن نستجلب له الدواء من بعيد ، بل سنستمسك بالحقائق التي رسمتها الفطرة الصادقة . إن تنظيف العالم الإسلامي من الغرور والنفس والادعاء ، ومن السرقة والنهب والاستعلاء ، كفيل باجتثاث جذور الاستبداد ، وإراحة الدين والدنيا من ويلاته . . .

طبيعة الحكم المطلق .

قبل أن نذكر أصول الحرية التي قرر الإسلام بها حقوق الشعوب ، وقيد بها سلطان الحاكمين ، نريد أن نشرح بعض الخصائص الخلقية التي تكتنف الحكم المطلق وتجعل من الفرد المتسلط جباراً لا دين له . فكيف يرشح للحكم أو يبقى الحكم معه في دار الإسلام ووظيفة الحاكم

حراسة الإيمان في القلوب وحراسة الفضائل في المجتمع وحراسة المصالح العامة
في حياة الأمة ؟ ؟ ؟

وإذا كان فاقده الشيء لا يعطيه ، فهل عدو الشيء هو الذي يصونه
ويحسبه ؟ ..

(١) كبرياء فرد . . . ! !

أول خصائص الحكم الفردي — كما لاحظنا من تتبع تاريخ الاستبداد —
كبرياء الحاكم وتعالیه . .

وليس الكبر عقدة الضعة التي تجعل شاباً طائشاً يسير في الطريق متبختراً
تعجبه نفسه وتزدهيه ملابسه ، أو التي تجعل الموظف في ديوانه يحدد حق
العمل الذي استأجرته الدولة لإتمامه فيتشاغل عنه ويتغطرس على الجمهور
المحتاج إليه ! !

إن هذه رذائل حقاً ، وسواء دفع إليها النقص المركب أو الغرور اللاحق
فهى جرائم محدودة الأثر إلى جانب سوراة الكبر التي تجيش في نفس
صاحب السلطة العامة فتحمله من مكانه حيث يعيش مع الناس على ظهر
الأرض ، إلى سماء يتخيلها وينظر إلى الناس من عليها ، فإذا به يرى العالقة
أقزاماً ، ومن دونهم هباء ، ويحسب الخير الذي يعيش الناس فيه فيض
السحاب الهامى من يده المباركة !

ولذلك تسمعه يقول ما قال الخديوى توفيق للقائد أحمد عرابى عندما
طالبه باسم الأمة أن يمنح الشعب دستوراً : هل أتم إلا عبید إحساناتنا ؟ ؟
إن الكبر في هذه الحالات لا يزال يتضخم حتى يتحول إلى تأله ! !
وتلك حالات معهودة في أمراض النفوس ولذلك جاء في الحديث عن

الله عز وجل : « الكبرياء ردائي والعز إزاري فمن نازعني شيئاً منها عذبتة » . . .

ألا ما أكثر الذين نازعوا الله هذه الصفات من حكام الشرق البائس !

والكبر كالشرك^(١) يبدأ عوجاً في تصرف صغير فلا تكون له فداحة الكفر بالله ، ولا يزال ينمو حتى يتحول بطراً على كل حق وغمصا لكل فرد وعندئذ يكون الكبر والكفر قرينين .

ولا يتعاطفن القاريء هذا ، ففي كتاب الله مصداقه من آيات كثيرات :
« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » .

« ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ، ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » .

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ » .

« فَالْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ! بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ! فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » .

(١) يقول علماء الكلام : الشرك يكون في العمل وفي العقيدة .

وتأكيذا لهذه المعاني يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » .

إنه كبر الرؤساء الفجرة والأمراء الظلمة والمستبدين المتألهين . والتخليد في النار والحرمان من الجنة اللذان نطق بهما الكتاب والسنة جزء عدل لهؤلاء المتألهين ، وأهل أشد الناس شعوراً بعدالته من وقعوا تحت وطأة أولئك الكبراء المعتوهين . . .

والكبر إذا حكم تقاليد تحتضنه كما أن للعمر إذا شاع أسراً ترتزق به . . وكبرياء الحكام ترمز إلى ضرب من الوثنية السياسية له طقوس ومراسيم يتقنها الأشياء ، ويتلقمها الرعاع على أنها بعض من نظام الحياة الخالد مع السموات والأرض .

وحيث يسود الحكم المطلق تنقص الإنسانية من أطرافها ، بل من صميمها ! .

وذلك أن الله قد خالق البشر أحادا صحيحة وجعل لكل أحد منهم مدى معيناً يمتد فيه طولا وعرضا . فإذا عن لأحدهم أن يتناول وينتفخ ويتزبد ، فعلى حساب الآخرين حتما .

ومن هنا تجد من حوله أوصاف شر أو أرماع بشر !! أصبحوا كسورا لأرجالا سواء ، وما نقص من تمام إنسانيتهم أضيف زورا إلى الكبير المغرور ، فأصبح به فرعوناً متألها بعد ما كان فرداً كغيره من عباد الله . . .

ولما كان الإسلام إنقاذاً للناس من جهالاتهم المتوارثة ، وحماية للفطرة من أن تأكلها تقاليد سوء وقوانين الاستبداد الأعشى ، فقد جعل كلمة التوحيد — وهي عنوانه وحقيقته — نقياً للوثنيات كلها ورفضاً لأية عبودية في الأرض وتدعياً للحرية التي ذرأ الله الناس عليها والكمال الذي رشحهم له . . .

ذلك بعض ما تعنيه الكلمة العظيمة « لا إله إلا الله » وهي الكلمة التي يرددوها الألو ف دون وعى . بل لعلمهم يعيشون في ظلها عبيد أو هام

وقد بعث محمد للناس وفي قلوبهم وجل من سطوة الملوك الأولين ، فلما جىء بأعرابي يوما في حضرته أخذته رعدة — يحسب نفسه قريبا من أحد الجبابرة — فقال له الرسول : هون عليك ، إني لست بملك . أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

كان قد وقر في الأذهان أن الملوك ليسوا من عبيد الله المألوفين فإن الأبراج التي يحيون فيها قطعت نسبتهم من الأرض ووصلتها بالسماء ، فزعموا أنهم سل آلهة أو عاشوا كذلك وإن لم يقولوا بألسنتهم ما يقولون بأفعالهم !! فأراد محمد أن يعرفه العرب على أنه بشر مثلهم لا ملك فوقهم ، ثم انقصب إلى أمه ، لا إلى العظماء من أجداده ، ليزداد الله تواضعا ومن الناس قوما

وجاء الحكام الراشدون بعده فمشوا في أثره وربطوا سبيلهم بالجواهر التي نبتوا منها فما تنكروا لها ولا تكبروا عليها ولا حسب أحدهم نفسه من دم أنقى أو عنصر أزكى .

واسمع إلى أنى بكر بعد ما ولي الخلافة يقول : « أما بعد فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولي هذ وأستغفر الله لي ولكم » .

وجاء في خطبة لعمر بن الخطاب : « اعلَمُوا أن شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافا على الظالم والمعتدي ، والأخذ لضعيف المسلمين من قوِيهم

فاتقوا الله وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاي الله من أمركم . . .

أيها الناس : إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله «
هذا هو وضع الحاكم المسلم في الدولة المسلمة ! .

رجل من صميم الأمة يطلب أن يعان على الحق وأن يمنع من الباطل ،
ويرى السلطة الخولة له سياجا للمصالح العامة لا مصيدة للمنافع الخاصة ولا باباً
إلى البطر والطغيان .

ذلك هو أدب الإسلام الذي خطَّ مصارع الجبايرة في الدنيا وحط منازلهم
في الآخرة : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

(٢) الرياء بين السادة والأتباع . . .

كما ينبت الشرك في أحضان الوثنية ينبت الرياء في ظلال الكبر ،
وحيث يوجد السادة المستكبرون يوجد الأتباع التملقون والأشباع المراءون .
وجو الحكم المطلق أحفل الأجواء بمجاهير العبيد الراضخين للهون عن
طواعية أو كراهية وفي الحرب التي شنها القرآن الكريم على هذه المجتمعات
المظلمة ترى المهجوم يتتابع على مبدأ « السيادة والتبعية » وعلى ما يلحق هذا
الجومن إلغاء للعقول والضمائر .

كان فرعون يشير إلى هذا المبدأ عندما استنكر إيمان السحرة قبل أن
يأخذوا الإذن منه ؟ ! .

« وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » ، فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ
فَلَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ وَلَا صَلْبَيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ، قَالُوا لَنْ تُوْزَرَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .

في هذه القصة ثار العبيد على السيد المتأله واستردوا حرية عقولهم وضمائرهم
التي يريد الحاكم المستبد أن يحجر عليها ! .

إنه لا يريد أن يتصرف فرد بوحى خالص من فكره المجرد ، ولا أن
يقتنع أحد بفكرة انشرح لها صدره ، بل يريد أن يفعل الفعل أو يترك لوجهه
لا لوجه الحق .

كذلك يطلب السادة وكذلك يصنع العبيد ! !

وقد نرى القرآن على أقوام هذه « السيادة والتبعية » في مواضع شتى .
« وَإِذْ يَنْحَايُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغِنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ
فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » .

« وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
الْقَوْلَ : يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَمْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ
الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُؤُ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ
لَهُ أَندَادًا » .

عقبى الرباء :

وطبيعة المستضعفين أن يسارعوا إلى مرضاة رؤسائهم ، وإجابة رغائبهم ،
ولو داسوا في ذلك مقدسات الأديان والأخلاق .

والحاكم المستبد يبارك هذه الطبيعة الدنسة ويندق عليها . ولو راجعنا
الصحائف السود لتاريخ الاستبداد السياسى فى الأرض لوجدنا مراءاة الحكام
قد وطأت أكناف المنكر، وأقامت للأكاذيب سوقاً رائجة ، وقلبت الحقائق
وصنعت الدواهى .

قَتَلَ الخليفة المنتصر بالله أباه المتوكل على الله وتولَّى الحكم بعده !! وإلى
هذه المأساة يشير البحترى فى قصيدة مطلعها :

أكان وَلِيَّ العهد أظهر غدره ؟ فمن عَجَبٍ أن وَلِيَّ العهد غادره !
والخليفة الذى سماه الدجل السياسى « منتصراً بالله » تولَّى على العرش
بدل أن يذهب إلى السجن ، ووضع على رأسه التاج بدل أن يُحتزَّ بالسكين .
وإلى هنا لا تعنى القصة أكثر من أن مجرماً تولى الحكم ، وليس هذا
بدعاً فى تاريخ الاستبداد السياسى ، ولكن الشئ الذى تتفرَّز له النفس أن
يأتى شاعر مدَّاح إلى هذا المنتصر بالله واسمه محمد بن جعفر ليقول له :

لقد طال عهدى بالإمام محمد وما كنت أخشى أن يطول به عهدى
فأصبحت ذا بُعدٍ ودارى قريبة فيا عجباً من قُرب دارى ومن بعدى
رأيتك فى بُرْد النبىِّ محمد كبدر الدُّحى بين العامة والبردا !!
رجل قاتل ، يرتدى بُرْد النبوة ، ويعتبر أمير المؤمنين ، ويقال فيه
بدر الدحى ! .

وبدر الدجى هذا مظلوم ، فما أكثر تشبيه الدجى به . وقد يما تولى
ملك مصر عبدٌ قال فيه المتنبي :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطى من أهل السواد يدرّس أنساب أهل القلا
وأسود مشفره نصفه يقال له : أنت بدر الدجى !
ومن يدرى لعل هذا الأسود أشرف من كثير من البيض الذين سفكوا
وأفكوا . . . ثم أسلس لهم الأمر ودانت لهم العامة فسودّوا وتُمَلَّقوا .
وفى دواوين الشعر العربى مطوّلات أجاد الشعر سبكها فى مدح الملوك
الأقدمين يدور جلها على الكذب الصراح ، والجراة على الله ، والخيانة
للإسلام .

أنماط من الرياء :

قد يكون الرياء من الصغار للكبار ابتغاء عرض الدنيا .
وقد يكون من الكبار للصغار ابتغاء تأليف الأتباع ، إذ يحب هؤلاء
السادة أن يمهّدوا لزعاماتهم ورياساتهم بأعمال تزرع فى القلوب هيتهم ، وتجعل
لجاههم فى الأرض دعائم مكينة ، فيفعلون الخير لا لوجه الله ولا لحب الخير ،
بل ليلفوا بهم الجماهير المعجبة ، ويلفتوا نحوم الأعناق المشرّبة ، فيكون
رياءهم امتداداً لكبريائهم . . .

وتصحیح النية — فى نظر الإسلام — هو معيار ما فى العمل من كمال
وفضيلة ، فلا يعتبر العطاء نبلاً ، ولا الجهاد فضلاً ، إلا إذا صدر عن صاحبه
خالصاً لوجه ربه . والوعيد الذى يسوقه الإسلام للفضائل التى خالطها الرياء
يكرهنا أن نقف طويلاً عنده ، فهو وعيد يتطّير منه الشرر ، ويتفجّر منه

المقت . بل إن هذا الوعيد على الفضائل المدخولة أنكى مما سبق من عقاب على كثير من الرذائل المحضة . وهنا وجه من الغرابة ! !

عن أبي هريرة : « حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضَى بَيْنَهُمْ — وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ — فَأُولَئِكَ مِنْ يَدْعَى بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَرَجُلٌ قَتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَارِئِ : أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي ؟ قَالَ : بَلَى يَا رَبِّ ! قَالَ : فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كَذَبْتَ ! ! وَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ فَلَانٌ قَارِئٌ ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ . . . وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَلَمْ أَوْسِعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ ؟ قَالَ : بَلَى يَا رَبِّ ! قَالَ : فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتَكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَنْصَدِّقُ . فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ : كَذَبْتَ ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ : مُلَانٌ جَوَادٌ ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ . . .

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ : فَمَاذَا قُتِلْتَ ؟ فَيَقُولُ : إِي وَرَبِّى ، أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ ! فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ : كَذَبْتَ ، وَيَقُولُ اللَّهُ : بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ : فَلَانٌ جَرِيءٌ ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ . . . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى رِجْلَيْهِ قَالًا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ ، أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . ! ! ! » .

هذا وجه الغرابة . وهنا كذلك موطن الاستشهاد بهذا الحديث الخطير ! هؤلاء أول خلق الله تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ؟

إن هذا العقاب فوق ما أعد للزناة والقتلة !
وأولئك قوم مهما فسدت نواياهم فالأعمال التي أذوها صالحة في ظاهرها
وربما كان فيها نفع للناس فكيف يرمون بهذا الجزاء ؟

إن الذى يدرس المجتمعات الفاسدة ويتغلغل فى بحث عللها ، والذى يتبع
أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة ويستقصى وسائلهم الملتوية فى تسخير الجماهير
للوصول إلى القمة ، والذى يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل
فجأة لأنها أصيبت برجال يحبون الظهور فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن
طريقهم وحدهم أما إذا جاء عن طريق غيرهم فهو البلاء المبين . . .

الذى يلحظ هذه الآفات القتالة يدرك أن هنالك رجالا كأنما يعيشون فى
غرف من المرايا فأينما ولّوا وجوههم لا يرون إلا أنفسهم . . . إنهم يعبدون
أنفسهم من دون الله ويريدون أن تعزو وجوه الناس لهم .

وقد يقرءون القرآن ، لا قربى إلى الله ولكن لينتفعوا به فى تدعيم أثرهم
وقد يتصدقون لا عطفاً على محروم ، ولكن ليراهم الناس وأيديهم هى العليا
فلو خلوا برجل يموت جوعاً ما أطعموه .

وقد يقاتلون عن وطنهم أو عن مبدئهم لا ليفتدوا الوطن أو المبدأ فإن
ما تركز فى طباعهم أن الأوطان والمبادئ قدى لم أنفسهم . . . ! !



وقد لحنا من ثلاثين عاماً على ثورتنا ضد الإنجليز . نفرا من هذا النوع
الذى سيكون طليعة المجرمين إلى النار ، اصطنعوا المسكارم والتضحيات
فما استفادت البلاد شيئاً من تضحياتهم ومكارمهم . وظللنا نقاتل فى مواضعنا
لا تنتقل عنها خطوة إلى الأمام .

وذلك أنه لا يوجد فيهم من يريد أن يكون جندياً مجهولاً ، أو من يعمل
للحق في غير ما جلبه ولا ضوضاء .

بل على العكس تعلم العامة أن يسبحوا في الطريق هاتفين بحياة بعض
الأشخاص وتمجيد بعض الأسماء ، كأننا سنستبدل احتلالاً خارجياً باحتلال
داخلي . . . !

والوثنية السياسية حين تقترف بعض الفضائل لا تنظر إلى ما فيها من
خير ، فإن معنى الشر والخير غامض لديها ، وحسن الأمر أو قبحه بمدى
ما يعود عليها ! وقد رَوَوْا أن « نابليون » كان يؤمن بأن الثورة
الفرنسية مثلية في تاريخ فرنسا ولكنه مع هذا كان يعدها نعمة كبرى
لأنها جلبت له عرشاً ، وخولته سلطاناً مكن له في الأرض . . . !



عند ما تفسد الدولة بالاستبداد ؛ وعند ما تفسد الأمة بالاستعباد ؛ يعتبر
الرياء هو « العملة » السائدة ، وقاعدة تقرير الأجداد لطلاب المجد الكاذب
وتقريب المنفعة لطلاب المنفعة الزائلة ؛ وهو حينئذ خلق السادة والعبيد . .
لكن الإسلام جعل صلة الدولة بالأمة أكرم من ذلك وأبقى ، فالحاكم
إمام والمحكوم مُقتدى ، والكل يتنقى وجه الله وينخلع من أغراضه الخاصة .
والذي يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة ، لا يشغله أمر إلا أداء الواجب
الموقوت ، فإن صلى إماماً أو مأموماً فهو وضع عارض له . أما عمله الأصيل
فأداء حق الله . . .

كذلك الحاكم المسلم ، إنه ليس سيداً ليستعلى ويستعلن ، وإنما ليؤدى
عملاً موكولاً به . وذلك سر قول أبي بكر وعمر : « وُلِّيتُ عليكم ولست
بمخيركم . . »

وكذلك الخكوم المسلم إنه ليس تابعا ليلمق ويرأى ويعطى الدنية من نفسه . بل ليعين على الخير ويحجز عن الشر ويشارك فى حمل العبء . وهذا سر قول عمر للناس « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى » فقال له رجل من أخريات المسجد : لو رأينا فىك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ! فاستراح عمر لذلك وسر . . .

بهذه السياسة وحدها يستقيم أمر الناس وترشد طريقة الحكم . فلما جاء عبد الملك بن مروان ونهى الناس أن تقول له : اتق الله ، هدم ركنا فى الإسلام غير الذى هدمه أسلافه من أصحاب الملك العضوض . ثم كانت الرزايا التى جرت على دين الله وعباد الله أفدح الأخطار . . .

(٣) تبذير . . . من أقوات الشعوب ! !

ومن خصائص الحكم المطلق السرف الشديد على شخص الفرد الحاكم وعلى كل من يمت إليه بنسب أو يواليه بنصر . فترى شهوات الغنى — فى البطون والفروج — مشبعة ، ومُضَلَّات الهوى مسيطرة على المشاعر والنهى ! ! وعبء هذه النزوات يقع على عاتق الخزانة العامة وحدها فإن الاستبداد السياسى لا يبالى من أين يأخذ المال ولا أين يضعه وقد نكب المسلمون — من قديم — بنفر من القطاع ، وقعت فى أيديهم غنيمة الحكم فتقاسموها نهمين . ولم يعرفوا من المناصب التى سقطت فى أيديهم إلا أن أنها منابع ثروة للشباب الجامح والنزق والإفراط . أما مصالح الأمة فلا وزن لها . . .

لما حمل معاوية المسلمين على تمليك يزيد من بعده . فأصبح يزيد ملكا مهيبا نافذ الكلمة فى ميراث الخلافة الراشدة ، قال عبد الله بن هشام السلولى :
فإن تأتوا برملة أو بهندٍ نباعها أميرة مؤمنينا ! !

إذا مات كسرى قام كسرى نعدُّ ثلاثة متناسفينا !!

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلين !!

ولا تحسبن المسلمين برثوا من هذه الأدواء الخبيثة . ففي هذا العصر الذى
ققه فيه المجوس معنى الحكم ، ووظيفة الحاكم ، وطبيعة الصلة بين الشعب
وأولى الأمر فيه ، فى هذا الوقت ترى رجالا من الحاكمين بأمرهم لا يزالون^{١٤٢٤}
يعتبرون المال العام ملكا خالصا لهم . . .

وعندما كنت فى الحجاز ، منذ عام ، سمعت أن مناع البترول ليست للشعب ،
وأن إنتاجها الهائل يباع لحساب الأسرة المالكة !! وموقف الحاكم من المال
العام وضع أساسه الرسول نفسه . فعن عمر بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلى بغير من المقم . فلما صلى أخذ وبرة من جنب البعير ثم
قال : « لا يحل لى من مغنمكم مثل هذه ، إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم » .
ونتيجة هذا التورع الجليل عن مال الأمة أن الرسول وآل بيته عاشوا
على الكفاف .

روى مسروق قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فدعت لى بطعام .
ثم قالت : ما أشبع فأشاء أن أبكى إلا بكيت ! قلت : لم ؟ قالت : أذكر الحالة
التي فارق رسول الله عليها الدنيا . والله ما شبع من خبز ولحم مرتين فى يوم .
وفى رواية قالت : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية ، ولو شئنا لشبعنا .
ولكنه كان يؤثر على نفسه .

ومن خطبة لعتبة بن غزوان : « . . . ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول
الله ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشقتها
بينى وبين سعد بن مالك ، فأنزرتُ بنصفها وأنزرت سعد بن نصفها ، فما أصبح

اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله من أن
أكون في نفسى عظيماً وعند الله صغيراً »

هذه كلمات أمير تخرج في مدرسة محمد ، وأخلص لتعاليمها لما واثته الدنيا
فهو في قوته يذكر أيام فاقته ، وينأى بنفسه عن الفتنة بالإمارة والسلطان فلما
تحولت الدنيا إلى ملك عضوض استمعنا إلى معاوية يقول : (الأرض لله وأنا
خليفة الله ، فما آخذ من الله فهو لي ، وما تركته منه كان جائزاً لي . . !) وهذا
كلام باطل كل البطلان . ولكن السياسة التي لادين لها حملت وزره ، ولا تزال
إلى يوم الناس هذا تنفذه في كثير من البلدان المسروقة أرضاً وشعباً . . !

ونتيجة هذا التوسع الشنيع في انتهاب المال العام ، أن عرفت للأسر
الحاكمة في الشرق والغرب — منذ قرون — تصرفات تطيش لها الأحلام . .
فهذا قصر واسع الردهات منيف الشرقات يبنيه رجل لنفسه فحسب !
يقف أمامه الشاعر القديم هاتفاً :

لست أدري أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس ؟
مشخرٌ تعلو له شرقات رفعت في رءوس رضوى وقدس !
هذا البناء الرائع ليس مدرسة لتعليم الشعب ، ولا مستشفى لتمريره ،
مع أنه حجراً حجراً من مال الشعب . . .

أما ولأئمتهم وملابسهم وأعراسهم وأحفالهم وسائر شئونهم فإن وصف
ما يلابسها من بذخ وسعة يتطلب من الأسفار حمل حمار !!

ولا نزع أن هذا البلاء كان حكراً على بلد بعينه فإن أقطار الدنيا
الأخرى ذلت تحت وطأته زمنًا ، حتى تخلصت عدة منها من قيوده . . .
ولا تزال الأخرى تجاهد في طريق الخلاص

وحكم الإسلام على هذا الضرب من اللصوصية لا يحتاج إلى قه عميق
أو فلسفة معقدة إلا إذا احتاج ضوء النهار إلى دليل
إن الحاكم المطلق يتشهى ما يشاء فلا ينقطع شيء دون أمانته الحرام ،
والحلال عنده ما حل في اليد . أما الدين وتعاليمه فقكاهة النهار وسمير الليل .
والمعروف أن الشعوب إذا حكمت نفسها بنفسها ، وانتدبت لمهام القيادة
من تراهم أهلاً لها منحتهم أجوراً مجزية لجهودهم ، ولم تبخل عليهم بمستوى
كريم من العيش الآمن الكريم .

ونحن اليوم نرى نظاماً شتى تتفق على هذا المبدأ ، فعلى ما بين أساليب
الحكم في إنجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا من فروق ، نرى الحاكمين هنالك
قد قررت لهم رواتب لا وكس فيها ولا شطط ، ثم رسمت لهم حدود لا يعتدون بها
وهذا حسن معقول . لكن الحكم المطلق لا يعترف بهذه المعاني جميعاً ، فلا
الحاكم يرى نفسه منتدباً من الشعب ، ولا هو يرى المال الذي يصل إليه أجراً
لعمله — إن كان له عمل — ومن ثم فليست هنالك إطلاقاً حدود يقف
لديها في النفقة ، إلا فراغ شهواته وشهوات آله ، وهي لا تفرغ حتى الممات . .
ونظرة الإسلام إلى حق الحاكم في المال العام معروفة .

وقد كان عمر يرى نفسه على أموال المسلمين كولي اليتيم ، إن احتاج ،
أخذ قدر حاجته ، وإن استغنى استغنى « ومن كان غنياً فليستغنى » ، ومن
كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

وقد كان الفراعنة والأكاسرة والقيصرية في القرون الأولى يستهلكون
أقوات الأمم في مباحثهم وملاهيهم ، فلما أسس محمد بن عبد الله الدولة الإسلامية
الأولى كان مسلكه يناقض أتم المناقضة مسلك أولئك الجبارين من لصوص
الشعوب ، عن عمر قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على حصير ،

قال : فجلست ، فإذا عليه إزاره ، وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ! وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وقرظ في ناحية من الغرفة ، وإذا إهاب معلق ، فابتدرت عيناي ! ! فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ . فقال . يا نبي الله ومالي لا أبكي ؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ؟ وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار — وفي رواية — على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير . فقال : أولئك قوم عجبت لهم طيباتهم ، وهي وشيكة الانقطاع ، وإننا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا . ونحن لانطمع أن يكون الحكم على هذا النحو الرفيع من الطاقة على حمل أعباء الحياة العامة ، وأعباء التقشف والزهادة في طيبات الحياة

ومانكلفهم أن يناموا على حصير تنطبع تعاريجه الخشنة في الجلود الغضة ولكننا نتساءل إذا عزّ المثل الأعلى على امرئ تحول عنه إلى مثل السوء ؟؟ وإذا لم يقدر الحاكم أن يسير سيرة الأجداد قرر أن يسير سيرة الأندال ؟؟ لماذا لا نسدد ونقارب كما علمنا الرسول نفسه ؟

لكن المؤسف أنحكام المسلمين في كثير من الأزمنة رأوا أن الرسول وخلفاءه الراشدين ترفعوا عن بعض المباحات ، فحسبوا — لهمهم الساقطة — أن تلك تقاليد زمن وليّ وعهد فات ، وأن طبيعة الحياة أقهر لطبيعة الدين ورجاله الأولين ، وعلى ذلك قرروا — لا أن يتوسعوا في المباحات — بل أن يملأوا البطون سحتا ! ! وصدق فيهم قول النبي صلى الله عليه وسلم « سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »

واتباعا لوساوس هذا الهوى ضاعت تقاليد النبوة في الحكم ، ولم تقم بدلها تقاليد تدانيها وتتشبه بها ، بل حلت مكانها تقاليد الحكم في بلاد كسرى

وقيصر وفرعون ، وخرست الألسنة التي تشير إلى هذه السنن الدارسة : فإذا تسلى بها القصاصُ يوماً ، سُلكت مع الخرافات البعيدة في سياق واحد ، فما يفكر أحد في أن يؤدب بها حكام العرب والعجم والترك

وظل الأمر كذلك حتى طلع من المغرب شعاع يلقى ضوءاً عليها ، ويذكر الناس بنفاسها ، وبدأ ذلك من يوم هاجت الشعوب على جلاديتها وأخذت أنفاسهم ووضعت دساتير الحرية والإخاء والمساواة !!!

أما قبل ذلك في بلادنا ، فإن تقاليد الحكم كانت تنتسب — كما أسلفنا — إلى سياسة كسرى وقيصر وفرعون . ولم يكن عليها بئنة طابع رسول الله في التقوى والورع والعفاف

الأم . . . وما ملكت !!

وقد أجمع أئمة المسلمين على أن تقاليد الإسلام في الحكم قد تحولت عن مجراها الرشيد على عهد معاوية وأسرته ثم التاث أمر الدين واضطربت مصالح الناس ووجد من حكام المسلمين من سبق ملوك الكفر في سكرتهم وعميتهم . وذلك من سوء حظ البشر قبل أن يكون من سوء حظ المسلمين أنفسهم . وحُكم الإسلام في دمع أولئك الجبارين لا يحتاج إلى مزيد من البيان والتكرار .

وإن المؤرخ المسلم لتدركه الحيرة في بعد الشقة بين تعاليم الإسلام وتقاليد حكامه في القرون الأولى !!!

في سنة ٢٤٨ هـ خلع المنتصر بالله أخويه المعتز وإبراهيم من ولاية العهد بعده ، وقد كان أبوه المتوكل على الله قد أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط شرطها ، وأفرد لكل واحد منهم جزءاً من الأعمال رسمه له ، وجعل ولي عهده

والتالى للملكه محمداً المنتصر ، وتالى المنتصر وولى عهده المعتز ، وتالى المعتز وولى عهده إبراهيم المؤيد ، وأخذت البيعة على الناس كما ذكرنا . . . ١١ ما هذا السخف ؟ وكيف يتحكم رجل فى ثلاثة أجيال من بعده على هذا النحو الشائن أهو يورث أبناءه قطعاناً من البقر وإقطاعاً من الكلاً المباح ؟ ؟
إن الله عز وجل حرّم الإنسان حق تقسيم تركته على ذريته وتولى سبحانه توزيع أنصبتها على الورثة .

فإذا كان هذا حكم الله فى تقسيم المال الخاص فكيف ساغ لهذا المتوكل أن يقسم المسلمين على أولاده هذا التقسيم الشنيع ؟ وبدلاً من أن يُسمع رأى الدين فى هذا الخبط يحىء شاعر مرتزق لينوّه بهذا الصنيع فيقول — لا بارك الله له — :

ثلاثة أملاك ، فأما محمد فنور هدى يهدى به الله من يهدى
وأما أبو عبد الإله فإنه شبيهك فى التقوى ويجدى كما تجدى
وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة تقىً وفىً بالوعيد وبالوعد
فأولهم نور ، وثانيهم هدى وثالثهم رشد ، وكلهم مهدى !!!
وهذا الشاعر كذاب ، وما أطلقه بالبهتان إلا دريهمات يجتديها .

وما أكثر المرتزقين بالمديح الباطلة فى هذه الدنيا ، وما أخطر ذلك كله فى تضليل الرأى العام وإضاعة حقوق الله والناس . . .

هذه القصة تدل على الزاوية التى ينظر الاستبداد السياسى من خلالها إلى الجماهير ، فهم رِقٌّ يتداول بالبيع والخلع والتوريث والغصب .
وما دامت ذواتهم ملكاً فكسبهم حق السيد الحاكم ، يضع يده عليه كيف يشاء وينفقه كيف يشاء !!

(١) الخلافة زعامة روحية مدنية تباشر أمور الحكم ونسأل عن تصرفاتها ، وهى تعابر معايير عامة نظام الملك فى الدساتير الحديثة .

وقد تدخل بعض تعاليم الدين في نفوس الحاكين فتخفف من سواد هذه
النظرة كما تضيف قدراً من الماء على السائل المركز فتغير لونه ، وتكسر حدته !
وهذا ما حاول العلماء المخلصون أن يصنعوه في الشرق الإسلامي ، ليقللوا من
أخطار الاستبداد على مصابر البلاد والعباد . .

ومحاولات هؤلاء العلماء مدونة في كتب الأدب والمواعظ !
يطالع المرء فيها حواراً طريفاً بين النصيح من جانب الدين ، والتوقير
المفتعل من جانب الدنيا . . .

ويقال إن هذا النوع من العلماء والحكام قد اقترض ! ونحن نرجو أن
يوفق العالم إلى حضارة تختفي من جوانبها مظاهر الإسراف على النفس
والافتيات على الناس . وأن توفق بلاد الإسلام خاصة إلى التزام معالم دينها في
أدب الحكم ، وتثبيت حدود الشريعة فيما يقع بين الشعوب والرعاة .

بين الشورى والاستبداد

لا قداسة لرأى ... !!

ليس لمخلوق أن يفرض على أمة رأيه ، وأن يصدر في أحكامه واتجاهاته عن فكرته الخاصة غير آبه لمن وراءه من أولى الفهم وذوى البصيرة والحزم .
ومهما أوتي رجل من زيادة في مواهبه ، وسعة في تجاربه ، وسداد في نظره ، فلا يجوز أن يتجهّم للآراء المقابلة ، ولا أن يلجأ لغير المناقشة الحرّة والإقناع المجرد ، في ترجيح حكم على حكم ، وتغليب رأى على رأى .

وقد ظهر في الغرب زعماء مستبدون ، كانوا على جانب كبير من العبقرية والإقدام ، وكانوا يحترقون إخلاصاً لأوطانهم ، وحمية لإعلاء شأنها ، ولكن هذه الميزات العظيمة ذهبت سُدى ، وراحت بددا ، ضحية الاعتداد الأخرق بالرأى ، وفهم الزعيم أنه هدية القدر للشعب ، فيجب أن يصير كل شيء إلى تقديره ، وأن تُردى الخطط كلها إلا خطته !!

فكانت نتيجة هذا الاستبداد أن سقطت ألمانيا وإيطاليا ، وأن قُتل « هِتْلر » و « موسوليني » وهما من أفدر الرجال الذين ظهروا في العصر الحديث والحكام الذين يستبدّون بالأمور في الشرق يعتبرون أطفالا عابثين إذا قيسوا إلى أقدار هؤلاء الزعماء المهزومين ، فإذا كان الاستبداد قد قتل الذكاء ونكب شعوباً مثقفة بارعة ، فكيف الحال مع « الزعماء الصّوّر » في أمم واهنة متهاكة ؟؟

وما كان يجوز للأمم الإسلامية أن تضع مقاليدها في أيدي الحاكمين بأمرهم ، مهما ادّعوا من مقدرة وذكاء ، ذلك أنهم لن يكونوا أذكي عقولا وأنقى قلوباً من صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ، وقد كان سيد الزعماء يستشير من معه ، وينزل عن رأيه إذا رأى الصواب مع غيره .

فبأى حق يجيء كائن من الإنس والجن لينفذ رغباته المجنونة على أمة
يجب أن تدين له بالخضوع ، وإلا حاقت بها اللعنات ؟؟ .

لما أحرق المشركون واليهود بالمدينة وحوصر المسلمون في دورها وأزقتها
على النحو الذى قال الله فيه : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ،
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا » .

في هذه الأزمة العصيبة أراد النبي صلى الله عليه وسلم إغراء بعض القبائل
بفك الحصار لقاء جعل من ثمار يثرب ، فبعث إلى عُيَيْنَةَ بن حصن وإلى
الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث عمارة المدينة على أن
يرجعا بمن معهما عن رسول الله وأصحابه ، فخرى بينهما الصلح حتى كتبوا
الكتاب ، ولم تقع الشهادة ، فذكر ذلك رسول الله لسعد بن معاذ وسعد
ابن عباد واستشارهما فيه ، فقالا : يا رسول الله ، أشيء أمرك الله به لا بد لنا
من العمل به ؟ أم أمر تحبه فنصنعه ؟ أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : بلى ، شيء
أصنعه لكم !! والله ما أصنع ذلك إلا أنى قد رأيت العرب رمتكم عن قوس
واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم ، فقال
له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله
وعبادة الأصنام ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، ولا يطعمون أن يأكلوا منا ثمرة
واحدة ! فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟؟ مالنا بهذا
من حاجة ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت وذاك ! فتناول سعد الصحيفة فمحا
ما فيها من الكتابة ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

وفي غزوة أحد كان الرسول معجباً بالرأى الذى يشير على المسلمين أن يستدرجوا قريشا إلى المدينة ليقاتلهم فيها ، وعرض على الناس أن يأخذوا به . لكن الشباب المتحمس قالوا للرسول : اخرج بنا إلى أعدائنا ، ولم يزالوا به — من حبهم للقاء القوم — حتى دخل منزله ولبس لأمته ، وخرج مستعداً للنزال . ! ! .

فلما رأوه قد لبس سلاحه ، وأحسوا بأنهم غيروا رغبته وأنزلوه على رأيهم ندموا ، وقالوا بنسبنا صنعنا نشير عليه والوحى يأتيه ؟ فقاموا واعتذروا إليه وقالوا يا رسول الله ، اصنع ما شئت ! فقال : لا ينبغي لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل .

وكان الخير لو نزل الشباب عند رأيه ، ولكنه كره أن يفتات عليهم . أو أن يتراجع عن ملاقة الموت بعد ما تهيأ له معهم !

وفي موقعة بدر نزل الرسول بالمسلمين فى مكان ارتأه ، فجاءه رجل خبير بمواقع الصحراء وأشار عليه أن يتحول إلى غيره ، ففعل .

وفي اختياره العفو عن أسرى بدر — مع أنهم مجرمو حرب — نزل تصويب الوحى له « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وفي سماحه لبعض المترددين أن يتخلفوا عن القتال نزل عتاب لطيف على هذا الإذن السريع « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ » .

ولما كانت هذه التصرفات تتعلق بالناحية البشرية المحضة فى حياة الرسول — وهى ناحية تتعرض بطبيعتها للنسيان والنفاوت فى تقدير الأمور والعواقب —

لقد نبه رسول الله المسلمين إلى ذلك حتى يتعاونوا معه على تعرف الحق وعلى التزامه أيا كان المهتدى إليه .

ومن ثم جاء حديثه المشهور في القضاء « إنما أنا بشر مثلكم . وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار ! ! » هذا هو مسلك أعظم رجل مشى قدمه على ظهر الأرض !

ليس في السنة افتيات على حق الجماعة

من الخلط أن يستشهد بالأحداث التي وقعت في عمرة الحديبية على أي عمل مما يقع في دائرة الاجتهاد العام .

وتفصيل الحوادث في هذا الفصل الكريم من فصول السيرة ينطق بهذه الحقيقة . فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع صحابته يريدون زيارة البيت العتيق وكان أمل الصحابة كبيرا في أداء هذه الشعيرة لأن الرسول قص عليهم رؤيا تبشرهم بدخول المسجد الحرام

ومع أن قصد القتال كان مستبعدا أول الأمر إلا أن المسلمين — وكانوا نحو ١٤٠٠ — أخذوا للأمر عدته حتى لا يغدر بهم . قال البخاري في صحيحه وأبو داود في سننه : فلما وصل النبي إلى غدير الأشطاط قريبا من عسفان أتاه عتبة الخزاعي وقال إن قريشا جمعوا لك الجموع وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ! فقال النبي : أشيروا على أيها الناس أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن بجواتكن عنقا قطعها الله . . أو ترون أن تؤم البيت لا تريد قتال أحد ولا حربا فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال — أصحابه بلسان أبي بكر — إنما جئت عامدا لهذا البيت لا تريد

قتالا ولا حربا فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ! — قال : امضوا على اسم الله .
ونحن نستنتج من هذا أمورا :

- (١) أن الرسول إلى هذه المرحلة كان يستشير أصحابه .
- (٢) وأنه اقترح عليهم القتال وتأديب الأحلاف الذين انضموا إلى قريش ، ويرد وجهه نظره في استعمال العنف معهم .
- (٣) أن الصحابة هم الذين آثروا السلم وأرجأوا القتال إلى أن يصدوا عن البيت فعلا .

غير أن الذى حدث بعد ذلك قلب النيات والأوضاع ، فبينما النبى صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء يتقدم الركب ويستعد لما يتكشف عنه الغيب ولو كان قتالاً دامياً فى الحرم — إذا بالفاقة تبرك وحاول الصحابة إرغامها على استئناف السير فأبت وتوقفت ، فقالوا : خلأت القصواء ! — أى حرنت وعجزت فقال النبى (ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بمخلق ، ولكن حسبا حابس القيل .. والذى نفس بيده لاتدعونى قريش إلى خطة يعظمون فيها حرمة الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) ثم زجرها فوثبت تسعى ! هذه الحالة كانت بداية التحول وبها خرج الأمر من حدود الشورى العامة ورأى الناس . وبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف مستغنياً قلبه الملهم وحسده مصيخاً لتوجيه الله ولو كان ذلك مخالفاً للنية التى اقترح على أصحابه تنفيذها أول الأمر أو مخالفاً لرغبات هؤلاء الصحاب وآمالهم التى خرجوا بها .
فإذا كلم فى ذلك قال : (إني رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى) .

لقد خرج الأمر إذا عن ميدان الشورى وحدود الاجتهاد . ومع أن الرسول كان يقول لأبى بكر وعمر قبلا (لو اتفقنا على أمر ما خالفنا) فإنه هنا

خالف جمهور الصحابة لأن المجال قد قطع فيه الوحي . وأصبح لا رأى فيه لبشر . . . فإذا جاء حاكم مستبد وافتات على رأى الأمة مستشهداً بما حدث فى الحديبية فيجب أن يصنع بحد السيف لا يباطن اليد ، فإن الاستبداد لا يستشهد له دليل من دين الله ! !

وإذا وقع قارىء محدود الفقه على هذا الفصل من السيرة فاتخذ ذريعة لإهدار رأى الجماعة فينبغى أن يكشف له قصوره وأن يعرف الناس سيرة نبيهم من منابع الحق لا من مجارى الشهوات .

الرجل الذى تكلؤه السماء ، ويؤيده الملائكة ، وتصلى عليه الملائكة ويبلغ رسالته بعين الله ، ويصعبه من آى القرآن قول الله له : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . . » .

لم يمنعه هذا أن يلتقط الحكمة من أى أناة ، وأن يبحث عن الحق مع أولى الفطنة والفقه من صحابته . والذى يقرأ سيرة هذا الرسول الجليل يعلم أى أفق من آفاق المجد والحصافة والكياسة كان يحيا فيه ويلقى الناس به . والرجل العظيم يلقي الناس بآرائه فلا يبالى أن يناقشوه ويناقشهم حتى يستبين وجه الحق .

شتان بين هذه القمم الشم و بين الأنهار الذين ظهروا فى الشرق أيام عاره وانهياره ، فأسسوا بأسمائهم دولا ، وأصبحت لدويهم إراثا ، وتكلموا بغيائهم عن وراءهم فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ! !

هذا . وقد قال علماء التفسير فى شرح قوله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » ما سِرُّ هذه المشاورة مع كمال عقله ، وجزالة رأيه ، ونزول الوحي عليه ووجوب طاعته على كافة الخلق فيما أحبوا وكرهوا ؟

ثم أجابوا بأن القصد ، شاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد ، من شئون الدنيا وسياسة الحرب والسلم ، لتستظهر برأيهم وتستعين بخبرتهم ، فيتمحض لك الحق الخالص . ثم إن في هذا تطيباً لقلوبهم وتدعياً لأشخاصهم مما يجعلهم عليه أعطف وأحب !! وليستن به من بعده من الحكام فلا يهملوا الرعية وينفردوا بالنظر في تديرها ، قالت عائشة : « ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ! ! » واتفق العلماء على أن كل ما نزل فيه من الله وحى لم تقع فيه مشورة ، فهو حكم لا معقب له . . .

طبيعة الشورى !

الشورى فضيلة تطابق العقل والنقل على حدها ، وصدقت الأيام عظم جدواها وحسن عقباها قال بشار :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن رأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
فما خير كف أمسك الغل أختها ؟ وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وأدن — على القرى — المقرب نفسه ولا تشهد الشورى امراً غير كاتم
وقد عرفنا أن رسول الله كان يستشير ، وكان ينزل عن رأيه إلى رأى أصحابه ما دام الصواب قد ظهر إلى جانبهم . . .

وطبيعة الشورى أن تكون في أمور تتفاوت العقول في إدراكها ووزن ما يرتبط بها من نفع أو ضرر ، وما يتمحض عنها من نتائج دقيقة أو جليلة . وفي الشئون التى يصح للجماعة أن تختار ما تميل إليه من أطرافها المتقابلة ، تقرر الكثرة أو القلة رأى الأخير ، وميدان هذه الشئون فسيح

غير أن هناك أموراً أخرى لاصلة لها بهذا الميدان ، ولا مكان فيها للشورى !! فحقائق العلوم ليست موضع جدل تغلب فيه الكثرة وتأخر القلة ،

وقديماً رأى أحد علماء الفلك أن الأرض كروية الشكل فنازعه الجمهور من رجال الكنيسة وحكم بقتله !

وقواعد الدين ليست موضع أخذ ورد كذلك ، فما قال فيه الوحي كلمته وجب قبوله من غير توقف . وجميع المواقف التي استشار فيها الرسول صحابته كانت مما يتناوله الاجتهاد العام .

وأصحاب الرسالات الذين يريدون تغيير أوضاع ضالة ومحو خرافات قائمة وإصلاح عقول معوجة ، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكقادة الفكر من الأئمة المصلحين — هؤلاء جميعاً لا يعينهم في أداء رسالاتهم الفاضلة تآلب الجاهل وتعصب السفهاء ، بل لقد صدع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه — وحيداً — في وجه مقاومة عنيفة من أمة مسخها الشرك ، وكان الوحي يلاحقه بالتأييد كلما أنهكه ضلال هذه الكثرة المنحرفة عن الجادة ، والطريق السوي : « وَإِنْ تَطِيعُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » .

ومعروف أن تقليد الآباء ، ومتابعة العرف ، ومسيرة العوام ، هي أشد العقبات التي قامت في وجوه المصلحين ، حتى قال أبو تمام :

إن شئت أن يسودّ ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم !

لقد تعلم المسلمون من دينهم أن طغيان الفرد في أمة ما جريمة غليظة ، وأن الحاكم لا يستمد بقاءه المشروع ، ولا يستحق ذرة من التأييد ، إلا إذا كان معبراً عن روح الجماعة ومستقيماً مع أهدافها .

ومن ثم فالأمة وحدها هي مصدر السلطة ، والنزول على إرادتها فريضة والخروج على رأيها تمرّد !! ونصوص الدين وتجارب الحياة تتضافر كلها على تأكيد ذلك .

ولئن فهم المسلمون هذه الحقيقة من دينهم مرة ، فهم يفهمونها من الكوارث التي نزلت بهم ألف مرة ، والمحنة الأخيرة التي حلت بنا فروع حريمنا ، وخرّبت ديارنا ، وقتلت مرشدنا ، وحشدتنا في المنافي لنجوع ، وفي السجون لنعذب — هذه المحنة التي أريد بها استئصال شأفتنا ، لولا أن القدر وحده حمانا وآوانا ! ! لم تقع بنا إلا في غيبة الدستور ، وتكيم الأقواء ، وتقييد الحريات ، وانطلاق الفرد الحاكم بأمره يطغى ويبغى لا يردعه شيء . فمن المستحيل أن ينسى المسلمون منطق دينهم ، وعبر تاريخهم ، وأن يرضوا ساعة من نهار بانقلاب الأوضاع الدستورية وعودة لون من الحكم البغيض ، إذا لم يكن عنوانه القوانين العرفية والأوامر العسكرية ، فإن حقيقته هي هي سواء بسواء .

وأخطأ من المفسرين من وهم أن الشورى غير ملزمة ، فما جدواها إذن ؟ وما غناؤها في تقويم عوج الفرد إذا كان من حقه ألا يتقيد بها ؟ وأين في حياة الرسول وسيرة خلفائه ما يدل على أن الحاكم خرج على رأى مستشاريه ومضى في طريقه وحده . ؟

ربما استشهد بعضهم بموقف أبى بكر في حرب الردّة واعتراض بعض الصحابة له في قتاله من نطق بالشهادتين — ومن بينهم عمر بن الخطاب — وإصرار أبى بكر على موقفه ، ويمينه التي أقسمها على قتالهم إلى النهاية . وهذا استشهاد يرد في غير موضعه ، قصة أبى بكر مع المرتدين ومانع الزكاة لا تعنى إلا أنه عرف الحق قبل عمر ثم مال به أن أقنع به صاحبه فأيد وجهه نظره ، واتفقا جميعا على تنفيذها . وخطأ عمر في موقفه ابتداء مع المرتدين كخطئه بعد وفاة الرسول حين أنكر موته وتوعد من يقول به ، ثم تاب إلى الحقيقة التي قررها أبو بكر في يقين وتؤدة .

والديمقراطية الحديثة تخضع الحاكم لرأى الكثرة ، ولكنها تمنع السلطة التشريعية من التدخل في شئون السلطة التنفيذية المحضة ، فإن كان الذين يريدون إطلاق سلطة الحاكم عن دائرة الشورى يعنون ذلك فلا حرج عليهم وإلا فكلامهم لغو لا يعتد به .

وهذا بحث نظرى مبتوت الصلة بالحياة الواقعة في بلاد الإسلام اليوم ، فإن الحكم المطلق الذى ظهر في الغرب كان يستند إلى جمهور ضخم من المؤيدين والأنصار المتحمسين .

إن « هِتْلَر » وصل إلى الحكم عن طريق الشعب نفسه ثم تحول بعد إلى « ديكاتور » وكذلك فعل كثيرون من الحكام المستبدين هناك . أما عندنا فالحكام يظهرون فجأة « كالنبات الشيطاني » لاتعرف كيف ظهر ولا من تعده ؟؟ .

وتنام الشعوب ليلاً ، وتصحو نهارها ، وهى ترمق حكامها كما يرمق المحزون القدر الغالب ، أو كما يحمل المفجوع للصيبة الفادحة .
وقلما تألفت حكومة ينظر إليها الشعب كما ينظر الإنسان إلى المرأة فيجد فيها صورته ، حتى أصبح الشذوذ قاعدة ! وحتى أصبح العامة يستغربون العدالة ويألفون المظالم .

وطالما كنت في طفولتى أستمع إلى الخطباء أيام الجمع وهم يدعون الله أن يولى أمورنا خيارنا ، ولا يوليها شرارنا ، وألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء مِنَّا ، وأن يُحسِّنَ خلاصَ المسجونين !! (يعنون ضحايا الاستبداد لامعتادى الإجرام) كانت هذه الدعوات تقارن الدعاء بالمغفرة والتطلع إلى الرحمة العليا كأنما أصبحت مصائب الحكم تساق خطايا الأفراد كلاهما في حياة الناس ضربة لازب

ضمانات الحرية ...

يمتاز هذا العصر بأن الصلة بين الحكام والشعوب قد ضبطتها دساتير محددة وقوانين مفصلة ، وأن المظالم التي كانت تقع قديما دون تخوف والتي كان المتفردون بالسلطان يأتونها من غير مبالاة ، خفت كثيرا ، فبعد أن كانت سيلا جارقا أصبحت رشاشا متناثرا ، وأصبحت تقع مكروهه مستنكرة

وقد يفلت مرتكبوها من العقوبة ، وقد يقعون تحت طائلة القانون . . .
ولسنا نزعم أن هذه الدساتير الموضوعة والقوانين المرسومة هي التي ضمنت للجماهير حياة العزة والعافية . وأنهم كانوا قبلها نهب التسلط والعدوان . فقد يقع الظلم مع قيام القانون ، وقد تتحقق العدالة في مجتمع يعتمد على التقاليد الفاضلة . . .

يوم كان الأنبياء ، والحواريون ، والقديسون ، والخلفاء الراشدون ، يحكمون الأمم . توفر للناس جو من العدل والمساواة وحماية الحقوق والانتصار للضعاف لا يوجد له إلى يوم الناس هذا شبيهه ! مع قلة الدساتير التي كانت تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم على النحو المفصل المعروف الآن بيننا

وربما لا يوجد هذا الصنف الكريم من الحكام الملهمين إلا أن تسوق الأقدار الطيبة إلى الأمم ملوكا من ذوى القلوب الكبيرة والأفئدة الرحيمة يحكمون رعاياهم بالقسط ويجهدون في سبيل نفعهم وإنصافهم .

إلا أن هؤلاء وأولئك كانوا في تاريخ الإنسانية كاللوحات الظليلة في الصحراء المحرقة ، ذهبت أيامهم القليلة بما حوت من خير وبر ، ثم تطاولت العصور على الأمم وهي ناصبة لاغية ، تخرج من ظلمة لتدخل في أخرى ، وتقوم من كبوة لتسقط في هوة . ! حتى كمن في صدور الأخلاف بعد

الأسلاف غل أسود تُمُدُّه بالنار مظالم متوارثة ، فلما انفجر الوعي الشعبي في بقاع كثيرة ، وقتل الثوارُ ملوكَ فرنسا وإنجلترا وروسيا ، وبدأت الجماهير الهائجة تكسر قيودها وتسترد حرياتِها ، تعلمت أن تسجل في نصوص حاسمة ووثائق صريحة ما حصلت عليه من حقوق حتى لا تلتهمها مطامع الحكام كرة أخرى وقد جاء الإسلام من أربعة عشر قرناً . والدنيا من قبل مجيئه مقسمة بين نفر من الملوك المتألهين فكانت موجة الفتح الإسلامي تستهدف في مدّها للنسب تحطيم أولئك الملوك وكسر شوكتهم ، بعد ما تبين أنهم حريصون على تكفير الشعوب وإذلالها .

فلما قُتِلَ ملك فارس ، ودخل سعد بن مالك إيوانه الأبيض ، تذكر كيف نصر الله موسى وقومه ، وقتل فرعون وجنده ! فتلا في حق كسرى ما نزل في حق فرعون « كَمْ تَرَ كُؤًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاعْيَنَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا يَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » .

وبداهة أن الإسلام لم يقتل كسرى ليستبدل به كسرى آخر ، ولكنه ذك أطوار الاستبداد ليمهد الطريق أمام الشعوب العانية كي تعبد رب العالمين في أمان وحرية وسكينة .

فإذا لم تضمن هذه المعاني موادّ وبنود مفصلة ، ففي كتاب الله وسنة رسوله حواجز هائلة دون الاستعباد والاستبداد .

بيد أن المسلمين مع الأسف العميق أفلت من أيديهم الزمام على عجل فبعد أن كان حكامهم رجالاً من طراز « عمر » أصبح أمرهم إلى شباب خلعاء من أمثال « يزيد » وصدق رسول الله « هلاك أمتي على يد أغيلة من قريش !! »

وقبل أن نذكر موقف الإسلام من الملوك المستبدين على عهده ، يجب أن نقف قليلا لنشرح مانعنيه كلمة « ملك » حتى لا يقع في الأوهام لبس فيما نعنيه . . .

ملوك . . . !!

قد تطلق كلمة ملك على الرجل الحر ، الآمن من المظالم ، وقد تطلق على من يملك الضرورات المعنوية الكافية .

وقد جرى هذا الإطلاق في لسان الشارع قال الضحاك : من كان مسكنه واسعا ، فيه ماء جار فهو ملك .

وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص قال ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال عبد الله ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : أنت من الأغنياء ؟ قال : فإن لي خادما ! قال : فأنت من الملوك ! ! وقد امتن الله على بني إسرائيل بالحرية بعدما لاقوا في مصر من استعباد ، وبالأمنه بعدما عانوا من مخاوف . فاعتبرهم بالحال التي انتقلوا إليها ملوكا » وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يوت أحدا من العالمين » .

وأفراد الشعب جميعا لا يكونون ملوكا إلا بهذا المعنى .

وقد تطلق صفة الملك على سعة السلطة وبسطة القوة وكثرة الأتباع ، مهما كان منصب المرء .

فعند ما رأى أبو سفيان رسول الله في غزوة الفتح وحوله كتائب الأنصار يلمع فوق رموسها البيض ، وبين يديها جيش ضخم من المؤمنين

المجاهدين ، قال للعباس بن عبد المطلب : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً !!
وقد كان يوسف وزيراً للسلالة أول التسمين ومع ذلك قال « رَبِّ ، قَدْ
آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » وربما قصد
بالمملك الجبارة الذين ينصبون أنفسهم أصناماً ويطلبون لها قداسة كاذبة ،
وينتحلون الألوهية الزائفة ، ويفرضون ألا يعصى لهم أمر ، ويعتقدون
أنهم أسما من أن يوجه لهم نصيح !

من هؤلاء فرعون موسى الذي باهى مفتخراً فقال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ
مِصْرَ ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ؟ » ، فلما جاءه موسى
يعرض عليه أن يتزكى ، وأن يدع هذا الدجل ، وأن يدين لإله يملك العالمين
« قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ! قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْمَعُونَ ؟
قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ! قَالَ : إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ لَجُنُونٌ . قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ
تَعْقِلُونَ . »

فانظر كيف يستنكف أن يجعل خطاب موسى له فيحوّله إلى
جلسانه كأنه جاء إليهم لا إليه ! « إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ ! » ثم يرفض في كبر أن يقبل الهدى ، ويقول لرسول
رب العالمين « أَتِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ !
وقد يراد بالملوك رؤساء الدول . سواء أطلق عليهم لقب الملك
أم لم يطلق .

والاصطلاح الحديث يرفض هذا التعميم ، فإن الدول قد تكون
جمهوريّة ، وقد تكون ملكيّة .

لكننا إذا نظرنا إلى الملابس التي تحيط بأولئك الرؤساء وجدنا من النقائص ما يستحق النظر .

ف رئيس الدولة في إنجلترا مثلاً ملك ، ولكن القيود التي يحاط بها تحبس سلطته في نطاق ضيق جداً ، والحاكم المسئول هو رئيس الوزراء ، وصاحب التاج يملك ولا يحكم ، ويتوارث تاجه في أعقابهم . .

أما رئيس الدولة في روسيا فله من اتساع النفوذ ونفاذ الكلمة ورهبة الاسم وتلاشي الشخصيات الأخرى أمامه مالا يقاس به ملك إنجلترا العريق . . . وإن كان لا يورث أولاده شيئاً من ملك روسيا المتراعى . . . ونحن في أحكامنا ننظر إلى الحقائق لا إلى العناوين . ولا نستطيع أن نتجاهل الوصف الصحيح لأي رجل تلتقى عنده مصير الألوف المؤلفة وتتوقف على كلمة من شفته سعادة أقوام وشقاوة آخرين !

والحاكم المطلق أياً كانت صفته وأياً كانت الأستار التي يختفي وراءها والشارات التي يبدو فيها ، مادام يبت في شئون الناس ، ويوجه الأمور إلى الخصام أو الوثام ، والحرب أو السلام ، وما دام يملك إقصاء هذا وتقريب ذاك ويستطيع أن يمحو ويثبت ويرفع ويخفض — فهو أمام الله يحمل تبعات أعماله وتطبق عليه نصوص الكتاب والسنة ، ويواجه بها رضى أم كره . . .

وقد بين لنا الله في كتابه أن جبروت الفرد الحاكم إذا انساح فلم تقفه حدود الشريعة ولم تحبسه ضوابط القانون فسدت الأحوال واختفى الرجال وهانت الحقوق وضاعت الكرامات « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » .

كما بين أن للسلطة المطلقة إغراء يوسوس لملكها بالتأله واحتقار المصلحين والاستهانة بدماء العامة » ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه — أن آتاه الله الملكَ — « أى أن هذا الذى يجادل فى الله لم يجرؤ على جدله السقيم إلا لأنه أوتى الملك ! فلما بدأ النقاش » إذ قال إبراهيمُ رُبِّى الذى يُنْجِي وَيُمِيتُ قَالَ : أَمَا أُخِي وَأُمِيتُ » أى أنا كذلك أملك حق الإمامة لمن أحكم عليه بالإعدام وقد أعفوه عنه فأحييه .

وهذه فى عرفة سمات التأله فى الأرض وإنكار رب السماء والأرض . !!
والله عز وجل لم يُعط هؤلاء الملكَ ليستولوا به .

عن أنى ذر ، قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها ، أيها الملك ، المسلط للبطل المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردّها ولو كانت من كافر .

حرب شعواء . . .

وقر فى أذهان القدامى أن الحكم أبسر سبيل إلى المغنم الجمة ، والمنافع الجسيمة ، وأن تملك الشعوب وسيلة فعالة يتمكن بها الرجال المغامرون من إجابة النزوات التى تضطرم فى دمائهم .

ومن كالحاكم تُنجبى له الأموال ، ويزدحم حوله العبيد ، وتربط مصالح العباد بسدته ، وترتفع حظوظهم أو تنخفض بإشارته .

إن الإمارة كسب مادى ، وجاه أدبى ، يناله الإنسان من غير عوض طائل ، والجاهير المسحورة حسبا أن تلتف حول أميرها لتُنطق لسانه مفاخرًا متعاطفًا بما قال الشاعر :

ترى الناس ما سرنا يسرون خَلَقْنَا وإن نحنُ أوماناً إلى الناس وقفوا
لا ريب أن هذه المناصب تفرى النفوس الطامعة ، وتجعل الكثيرين
يتوقنون إلى اعتلائها . فلما جاء الإسلام وبدأت هداياته تشرح الصدور بالحق
وأحست الشعوب بأنها كانت ضحايا لصوصيات كبيرة ، وعُرف أنه ما من
حق إلا بإزائه واجب ، وأن الحاكم فرد يختاره الجمهور ليأخذ منه أكثر مما
يعطيه ، وأن الحاكم يجب أن يحس بأقال المصالح العامة التي نيطت بعنقه ،
وأنه لو عقل تهيبَ أعباء منصبه فإنها أمانة سوف يسأل عنها ، لالذة عاجلة ،
يراد انتهازها .

لما جاء الإسلام بدأ يتكلم بدقة ووضوح ، فحما ما يفهمه الناس عن
الحكم من أنه متعة ومجد .

إنه مسئولية قاذرة لا يتعرض لها فيفرط فيها إلا أحق سيء الظن بالله ،
وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستحرصون على الإمارة
وستكون ندامة يوم القيامة ! ! فنعمت الموضة وبئست القاطمة » .
ويقول : « ويلٌ للأمرء ، ويلٌ للعرفاء ، ويلٌ للأمناء ، لَيْتَمَنَّيْنِ
أقوامٌ يوم القيامة أن ذوائبهم معلقة بالثريا يدنون بين السماء والأرض وأنهم
لم يلوا عملاً » .

وعن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن شتم
أنباتكم عن الإمارة ؟ وما هي ؟ فناديت بأعلى صوتي : وما هي يا رسول الله ؟
قال : أولها مَلَامَةٌ ، وثانيها نَدَامَةٌ ، وثالثها عَذَابٌ يوم القيامة ، إلا من عدل
وكيف يعدل مع قريبه ! » .

وهذه النصائح النبوية تقصد إلى قطع أطماع المتطلعين إلى المناصب
الكبرى ، يريدون منها تدعيم أثرتهم ، وتضخيم ثروتهم ، والاستعلاء على

مواطنيهم وإخوتهم ، وطلّاب الحكم لهذه الأغراض للدنيئة كثيرة هائلة ١ .
بل لعلمهم لا يفرحون بالحكم إلا لهذه المآرب ، وإن خدعوا الشعوب والجاهير
بظواهر أخرى .

والحياة لا بد فيها من أعمال رئيسية ومناصب كبرى ، فالناس لا يصلحون
فوضى ، لكن الفوضى التي يحاربها لا تمحى إلا برياسات تحقق العدالة وتقر
الفضائل وتحارب الآثام .

أما أن يكون الأمراء أنفسهم مثار الفتن ومصدر الرذائل ونواة الفوضى
فهذه هي الطامة التي يستأصل الإسلام جذورها .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعيد عنيف لكل من ولى عملاً
— كبراً أم صغراً — فخان فيه قال : « مامن أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولاً
يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور ، وإن كان مسيئاً زيد غلاً إلى
غله » وفي رواية « مامن رجل ولى أمر عشرة إلا أتى به يوم القيامة
مغلولاً يده إلى عنقه ، حتى يقضى بينه وبينهم » .

وقال « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » .

وانك لترى أركان الفساد الاجتماعى مقترنة يزجى بعضها بعضاً إلى
جهنم فيما رواه النبي صلى الله عليه وسلم « عُرِضَ عَلَىَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةِ يَدْخُلُونَ
النار ، أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حقه ، وفقير فخور » .

الأول يمثل الاستبداد السياسى والثانى يمثل الطغیان الرأسمالى والثالث
وهو الفقير الفخور يمثل خدم المظالمين من الأنباع الذين يمشون فى ركاب
الكبراء والأغنياء ، إنهم صعاليك ولكنهم يفخرون بساتتهم الذين
التحقوا بهم . .

فإذا انضم إلى هذا الفساد الاجتماعى تأييد المحترفين من رجال الدين
قد تمت سؤأته وطاشت رميته .

عن عوف بن مالك سمعت رسول الله يقول « انى أخاف على أمتى من
أعمال ثلاثة . قالوا : ماهى يا رسول الله ؟ قال : زلة عالم وحكم جائر
وهوى متبع » .

وليس هذا التحذير من الولاية العامة فحسب . بل ان كل رئيس
لعمل دق أو جل ينبغى أن يستعظم حق الله وحق الناس فى رعايته وحسن
القيام عليه . حتى لو كان رئيس ثلاثة كتبة فى ديوان أو رئيس ثلاثة
عساكر فى قرية ؛ أو أقل أو أكثر من ذلك . فإن توفر العدالة فى أمة
من الأمم لا يبلغ تمامه الى اذا حسن الإشراف على شئونها كلها وصينت
حقوق الناس فى نواحي الحياة جميعاً :

عن عمرو بن مرة الجهنى سمعت رسول الله يقول : « من ولاه الله شيئاً
من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلفتهم وقرهم احتجب الله دون
حاجته وخلفته وقره يوم القيامة »

وعن معقل بن يسار قال رسول الله « من ولى أمراً من أمتى قلت أو
كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله على وجهه فى النار »

وفى رواية « ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل
فيهم إلا كبه الله فى النار »

وعن أبى الدرداء سمعت رسول الله يقول : « ما من والى ثلاثة إلا لقي الله
مغلولة يمينه ، فكاه عدله أو غله جوره »

وكذلك قال رسول الله « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم

يموت وهو غاشق رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة »

ويستطيع القارىء أن يرى مصير حكام المسلمين اليوم ومنزلتهم عند الله فيما رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « من ولى عشرة فحكم بينهم بما أحبوا أو بما كرهوا جيء به مغلوله يده . فإن عدل ، ولم يرتش ، ولم يحف فك الله عنه . وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وحابى ، شدت يساره إلى يمينه ، ثم رُمى به فى جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام ! »

إنى لا أعرف ديناً صبَّ على المستبدين سوط عذاب ، وأسقط اعتبارهم ، وأغرى الجماهير بمناواتهم ، والانتقاض عليهم كالإسلام . !!

ولا أعرف مصلحاً أدب رؤساء الدول ، وكبح جماحهم وقع وساوس الكبرياء والاشتهاء فى نفوسهم ، كما فعل ذلك نبي الإسلام .

لقد كسَّر القيود وحرَّر العبيد . ووضع التعاليم التى تجعل الحاكم يتحرى العدل والمحكوم يكره الضيم .

أجل لقد فعل ذلك كله . وليس يغض من حقيقته عمق الفجوة بين الحاكم والمحكوم فى بلادنا المريضة المهيضة !

البلاد التى لاتعرف الدنيا اليوم أترف من أمرائها وأتفه من فقرائها . !

الاعديان والحر يات

الحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة ، يشب المرء من نعومته وهو يحس بأن كل ذرة من كيانه تنشدها وتهفو إليها ، وكما خلقت العين للبصر ، والأذن للسمع ، وكما خلق لكل جارحة أوحاسة وظيفتها التي تعتبر امتداداً لوجودها واعترافاً بعملها . . . كذلك خلق الإنسان ليعز لا ليزل ، وليكرم لا ليهون ، ليفكر بقله ، ويهوى بقلبه ، ويسعى بقدمه ، ويكدح بيده . لا يشعر وهو يباشرك ذلك كله بسلطان أعلى يتحكم في حركاته وسكناته إلا الله الفرد الصمد ، ربّه ، وربّ الناس أجمعين ! .

يبد أن الناس تظالموا فيما بينهم ، وطنى كبارهم على ضعافهم ، ومال الميزان دائماً مع ذوى القوة والبطش ، فخيماً وجدوا حجراً ما أراد الله له أن يتسع . .

وتاريخ العالم من أعصار سحيقة سلسلة من المعارك الدامية ، والأحداث القاسية ، حملت أوزارها الوثنيات السياسية السائدة ، تلك الوثنيات التي ملكت ناصى الشعوب ، وسخرتها فى أهوائها العابثة ، وفرشت طريقها بالأشواك والأقذار . ومنذ آماذ بعيدة والجاهير المهضومة تتطلع إلى حقوقها ، وتسعى حثيثاً لاسترجاع المصوب منها ، وقد تحملت فى سبيل ذلك أفدح المغارم وعند ما يرجع الإنسان بصره إلى وراء يجد معالم الكفاح إلى الحرية مضرجة بالدماء مزدهمة بالخرائب والأشلاء ! .

ولماذا يرجع الإنسان إلى ذكريات الماضى وهذه صفحة الحاضر الكئيب لعالمنا المرهق المكدود ؟ . إننا لانزال نسمع إلى أنات الشاكين ، وصرخات المخنوقين من ضحايا الاستعمار الخارجى والاستبداد الداخلى .

وفي جنبات الشرق الأوسط بقايا من ظلمات الجاهلية الأولى ترين على
القلوب والعقول ، حتى ليحسب المرء أن هذه الظلمات تتشعّع من آفاق
الدنيا كلها لتتجمع في بلادنا وحدها . ؟

وفي الوقت الذي تتحطم فيه الوثنيات السياسية في أنحاء شتى من العالم
يخلق الإنجليز لها طقوساً جديدة .

وها هي ذه سياستهم في طرابلس التي قيل : إن هيئة الأمم قد منحتها
استقلالها التام .

لقد أقاموا لهم فيها ملكاً جديداً ، وهم يلعبون اللعبة نفسها في السودان
ولا ينجلون من مزاوتها في كل مكان .

وفي الحرب التي شملت العالم أخيراً . وانضمت فيها الولايات المتحدة
إلى إنجلترا ، قام ساسة الدولتين الكبيرتين بالترويج لخدعة بارعة أوهما
بها شعوب الأرض طراً أن الحلفاء الجدد — من أركان الجهة الغربية —
يحاربون لتحقيق أهداف إنسانية سامية فوجه الرئيس « فرنكلين روزفلت »
إلى « الكونغرس » الأمريكي رسالة في ٦/١/١٩٤٦ قال فيها « . وفي
الأيام المقبلة التي ننوي أن يحيطها بكل ضمان . نتوقع أن يقوم العالم على
أربع حريات أساسية » :

أولاً : حرية الكلام والتعبير ، في كل بقعة من بقاع الأرض
ثانياً : حرية كل فرد في عبادة الله على طريقته الخاصة ، في كل
بقعة من بقاع الأرض .

ثالثاً : التحرر من ربة العوز .

وهو إذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية ، كان معناه عقد

اتفاقات اقتصادية تضمن لأبناء كل أمة عيشة راضية ، في كل بقعة من بقاع الأرض .

رابعاً : التحرر من الخوف .

وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه خفض السلاح^{٢٢} خفضاً عاماً واسع النطاق حتى يستحيل على أمة أن تعتدى على جارة لها في أية بقعة من بقاع الأرض .

هذه هي الأمانى المعسولة التي لوحت بها دجاجة السياسة . وأقرتها إنجلترا التي تشرق نصف العالم .

وسمع الناس الآمال الحلوة للأمم المستضعفة من فم « تشرشل » كما لو أنهم يسمعون الى عبارات الإيمان من فم « ابليس » .

ثم جاء طور « هيئة الأمم المتحدة » وحسب الواهمون أن الخرافة الكبرى قد تتحول الى حقيقة ! ولكن السراب لم يتحول في أفواه الظالمين الى ماء فرات .. وكذلك دارت الرحى المجنونة على الأكباد مرة أخرى ، وعادت الصليبية الغربية الى أساليبها العتيقة في استغلال بلادنا واستنزاف دمائنا واصطناع نفر من الحكام السفلة يعملون لحسابها ! وانضمت أمريكا كخليف جديد إلى فرنسا وإنجلترا . وبدأت الحلقات تضيق حول المسلمين الأحرار لشل نشاطهم في كفاح الأجانب المحتلين ومن يحيا في كنفهم من الإقطاعيين والمستغلين ! ! .

التحرر من العوز . . .

إننا نطالب بتحقيق هذه الحريات جميعا ، وسنرى موقف الإسلام ، بل أديان الله كلها منها . وكيف سعت إليها ورسمت أصول التربية الصحيحة لإقرارها وإشاعتها . . . وقد أشبعنا الكلام في البند الثالث من هذه الحريات الأربعة . وهو المتعلق بتأمين الشعوب ضد العوز ، ورفع مستواها المادى حتى يحظى بعيشة كريمة وأبنا في بحوثنا الاقتصادية للنشورة مبادئ الإسلام في هذه الناحية المهمة وما دام الرئيس الأمريكى قد تعرض لها ، وظاهره في التبشير بها دهاقين الاستعمار الغربى ، فلنذكر بصراحة أنه منذ استولت أوروبا « على قارتى » أفريقيا ، وآسيا « وضع الفاتحون الأقوياء سياسة فاجرة لإبقاء هاتين القارتين في ظلام دامس . بل إنهم بنوا غنام على فقرنا وتقدمهم على تأخرنا وحياتهم على موتنا . .

وشاع بين الفاتحين احتقار الأجناس الملونة ، ورسمت الحياة الاقتصادية على أن يكون الشرق مورد المواد الخام ، وعلى أن يكون أهله وأرضوه أبدأ في منزلة التابع المهين للسيد القوى .

ولما كانت « أوروبا » تعبد المال من دون الله فقد أصرت على أن يتوفر لها وحدها !

وقد حدث أن دار بين ساستها كلام لرفع المستوى المادى فى الشرق ، ثم استبان القصد المبيت من ورائه .

إنها ليست نازعة رحمة جاشت بنفوس أولئك الخصوم الشرفاء .

كلا . . . إنهم يسمنوننا لنكون حلفاء دسما لمدافع أعدائهم مثلما يُغنى الراكب بتقوية دابته لتطوى له الأبعاد وتعينه على وعشاء السفر ! ! والإنجليز

والفرنسيون والأمريكان يقيمون العوائق الكثيفة لعرقلة النمو العمراني في الشرق . ولا يسمحون به إلا إذا دشوا أصابعهم الخبيثة فيه لينالوا من ثماره النصيب الأكبر . وهم يظهرون الحكومات التي تعينهم على ذلك التوغل . والتي تقاتل لحسابهم الأجيال الجديدة الساعية إلى الحرية ، المنطلقة إلى النور . ومن السفاهة أن يحسب هذا النهج لمصلحة « روسيا » .

إن القاصرين عن إدراك الإسلام وطبيعته هم الذين يتوهمون ذلك . !
عندما أصدر آية الله كاشاني فتواه بقتل رئيس وزراء إيران ، وعندما رفض علماء الدين الصلاة على الوزير القتل لم يصنعوا ذلك إلا لحساب الإسلام الذي يبغي خيانة الشعب وبيع مصالحه لأعدائه !

أراد هذا الوزير ليتمكن الإنجليز من التهام بترول إيران ، أى أراد أن يعين الإنجليز على إفقار أمة بأسرها وإبقائها في الحضيض . لماذا ؟

لكي يبقى الوحش البريطاني عارم القوة منتفخ الأوداج ينطلق حيث يشاء ايعر بد ويفسد ، ويختال ويغتال !!!

ذلكم حكم الله العدل لتأمين حرية الشعب الاقتصادية ضد مؤامرات الاستعمار .

وأما سائر الحريات الأخرى ، التي يزعم الغربيون أنهم سدتها — وهم في الحقيقة قتلها — فإن سعى الشرق إليها ، وعدوان الغرب عليها ، ليس مما يدور عليه جدل . . .

وسنشرح هنا رأى الإسلام في ضمان هذه الحريات .

عدو منذ الأزل . . .

في القرآن الكريم تفصيل لحقيقة الدعوة إلى الله ، وتأريخ لسير هذه الدعوة ، وبيان لما أصاب حملتها عندما قاموا بحق الله عليهم في إبلاغ رسالتها

إلى الناس . . واستقراء أحوال الأنبياء مع أقوامهم يؤكد حقيقة واحدة ، لم تزدها الأيام إلا صدقاً . وهو أن الاستبداد الأعمى عدو الله ، وعدو رسله ، وعدو الشعوب . وأنه لا قيام لحق في هذه الحياة إلا إذا طُمست صور هذا الاستبداد ، وسويت به الأرض ، ومشت عليها الأقدام .

وقد ظهر أن تفكير المستبدين واحد على اختلاف العصور ، وأنهم لا يتركون غرورهم مهما تلطف المصلحون معهم .

ولو أمكن تقليد أظافرهم لوقاية الأمم من شرهم ثم تركهم أحياء بعد ذلك يفعلون ما يشاءون ، لأشرنا بذلك !! ولكن الآيات التي سنتلوها تتضار على اتهام الاستبداد السياسى بأن الشر ذاتى فيه فلا أمان لحضارة إلا إذا خلت منه . . .

فى إحدى القرى الفاسدة أراد الله أن يبعث إليها من يصلح شئونها ، ووكل ذلك إلى نفر من المسلمين الأخيار . فما إن بدأ عملهم الفاضل حتى منعتهم القوة الناشئة :

« وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِن أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين » .

إلى هنا كشف المرسلون عن حقيقة ما كلفوا به . وهو لا يعدو : « البلاغ المبين » .

ولكن جواب المستبدين منع هذا البلاغ وألا يمكن رسل الله منه : « قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَكِنَّ لَمْ تَنْتَهُوا لِرَجْئِكُمْ وَلَيْمَسِّنْكُمْ مِنَّا عَذَابُ أَلِيمٍ » .

فإذا عوقب المستبدون الأولون وسبق قصصهم لمن خلفهم حتى يزدجروا ،
فلا يرهبوا هاديا ولا يؤذوا مصلحا ، لم يزدحم هذا التذكير بمصارع المعتدين
إلا صلفا وعتوا

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ
مُرِيبٍ . وليس الشك فيما جاء به المرسلون جريمة ، فإن الشك أول مراتب
اليقين . ولو أن هؤلاء لما ترددوا في تصديق هدايتهم أعمالوا عقولهم في وزن
ما يعرض عليهم ، أو تركوهم وشأنهم يبلغون ما يعتقدون أنه الحق لكان الأمر قليلا .
لكنهم اتهموا أنبياءهم بأهم يخرجون على التقاليد المتوارثة ، وأردفوا
هذه التهمة بطلب السكوت عن إبلاغ الدعوة ، وإلا ..

وترى القلة المؤمنة أن تفوز بإيمانها وحدها ، وحسبها البلاع ! غير أنهم
لا يظفرون بهذا الأمل العزيز ويبدأ البلاء ينزل بهم . والاضطهاد لا يقتل
العقائد . ومن ثم يقول أولئك المستضعفون

« وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى
مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

ثم يمضى البلاء صعدا لطرد المؤمنين من ديارهم بعد ما فشل في حملهم
على الكفر برههم

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ
فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَاجِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ، وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

وعلى هذا السحرة حولت قضايا الإصلاح السماوى ، ما إن يبدأ عرضها
حتى يسارع الطغاة إلى وأدائها .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ
أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ »

فى قصة موسى مع فرعون تلح مطالب هذا النبىء الكريم واضحة ، فهو
يرجو أولاً تحرير المستعبدين من قومه ، فهم عباد الله وحده وليسوا عباداً لأحد
من خلقه ، وما يجوز لبشر أن يتعالى فى الأرض ويستدل أهلها هكذا :
« أَنْ أَذْهَبَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّائِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَىٰ
اللَّهِ إِيَّائِي آتِيكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ » .

ثم يقول : إذا كفرتم بالله فعليكم كُفركم ، وإذا لم أحكمكم على الإيمان
بالله فلا تحملونى على الكفر به !! دعونى ومن معى .

« وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ »
فماذا يصنع فرعون بإزاء هذا المنطق الواضح المسالم ؟ .

يمضى على سنة الفجور الذى ورثه عن آتائه الصَّيد ، والذى ورثه من
بعده كل مستكبر عنيد ! فيجمع حاشيته ليشير عليها بقتل هذا الرسول المرشد .
« وَقَالَ قِرْعُونُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يَبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

والمستبدون لا يعوزهم اختلاق الحجج لتبرير جرائمهم ، وليس قلب الحقائق بالأمر العسير على من يريد سفك الدم الحرام .

ومن ثمَّ اتَّهم فرعون موسى بأنه مظنة تغيير الدين ونشر الفساد ! .
أى دين ؟ إنه الحكم المطلق الذى يبيح لبشرٍ مغرور أن يستذل العامة ويستغل الخاصة ! .

قُوْى هؤلاء وذكاه أولئك طوع بنانه !
وأى فساد يحذره فرعون على الناس بعد ما أمر بقتل بنينهم واستبقاء بناتهم ؟ .

إن الفساد — فى منطق السقيم — هو إيقاف هذا البغى !!
والحق لا يعدم وسط أولئك رجلا سليم القلب ينطقه الإنصاف باستنكار قتل موسى .

ما جدوى قتله ؟ إن كان كاذبا فلن يضر إلا نفسه ، وإن كان صادقا وقعت الطامة فإن رب العالمين لن يهمل قتلة رسله . ؟

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون — يكتُم إيمانه — : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وإن يك كاذبا فعليه كذبه . وإن يك صادقا بصبكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » وصام الرجل الراشد ألا يغتروا بملكهم وامتداد نفوذهم وأن يتخوفوا بأس الله ، بيد أن فرعون اصطنع هو الآخر الحكمة وسداد رأى ! وأعلن أنه لا يغش قومه ، وأنه لا ينصحهم إلا بما اقتنع هو نفسه بأنه الصواب والرشاد !!

ونحن نسأل : أكان فرعون يعتقد حقاً أنه إله ، وأن الشعب عبيده ، وأن موسى مبطل ، وأن نصيحة الرجل المؤمن — في حاشيته — خطئ ، وأنه صدق في تعبيره عن خبيثة نفسه عندما قال :

« ما أرىكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ؟؟

الحق أن هذا إخلاص مفتعل ، وأن الرجل كاذب يستخف من حوله ، وأن هذا التبرير الظاهر تغطية للغرور الكامن في نفسه .
وأنه يأنس من نفسه الاقتراء ويواريه بهذا الادعاء . . .

وقد تكرر هذا المنظر الخداع في الكفاح الطويل بين الحق والباطل وبين الهداة والظغاة ، فقبيل اشتراك الفريقين في غزوة بدر استمعنا إلى أبي جهل الجبار يناجي الله — عز وجل — في صلاة حارة ، أن يجعل النصر قرين الحق !!

روى أنه قال : « اللهم أينما كان أجزر — يعني نفسه ومحمداً — قاطعاً للرحم ، فأجحه اليوم ! » . وقيل : دعا اللهم انصر أهدي الفئتين ، وخير الفريقين ، وأفضل الجمعين ، اللهم من كان أجزر وأقطع لرحمه ، فأجحه اليوم ! . ترى هل نسي أبو جهل ما صنع وصنع قومه بالمسلمين حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم بعد ما أوقعوا بهم ألوان النكال ؟ .

إبه لا يجهل ذلك بل يحجده ، وإنه ليدعور بما اتقاه يوماً ولا رجالة وقاراً . وما قد احتكم إليه وقالت السماء كلمتها وكتب النصر لأولى الطائفتين به « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا عُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً — وَلَوْ كَثُرَتْ — وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » .

قد يكون هؤلاء الطغاة جاحدين ، يعرفون الحق ويستكبرون النزول على حكمه ، وقد يكون الباطل مكيناً في أنفسهم ، ضارب الجذور في أعماقها فهم يضلون ويوقنون بأنهم مهتدون ، ويفجرون ويعلمون أنهم يحسنون ، ويتألمون ويحسبون أن هذا حقهم ، لا يمارى فيه إلا مكابراً ويسرقون أقوات الجماهير وهم يزعمون أنهم ينالون بعض ما سخره الحظ لهم .

والجهل المركب شائع بين ألوف مؤلفة من الناس . ويعتبر خاصة من خواص الطبقات النابتة في الحكم والسلطان .

إن عقولهم تشبه العدسات المقعرة ، تثبت فيها صور ممسوخة للأشخاص والأشياء ، فلا يرون الحياة إلا من خلالها .

غير أن هذه الأنظار المريضة لا تغير من واقع الأمر شيئاً ولا ينبغي أن يحترم المصلحون جهلها .

وفي أولئك المطبوعين على الضلال يقول الله :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَخَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المعنيين بهذه الآية ، وأنهم هم طوائف المتكبرين المنتفخين . قال : « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ! » .

وقال : اقرءوا إن شئتم : فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا » .

إنه لا بد في كل إيمان صحيح من ركيزتين يُمدّانه بالحياة والقوة : استنارة القلب ويقظة الوعي ؛ والله سبحانه ينشى رسله مزودين بطاقات ضخمة في كلتا الناحيتين ليكونوا ينابيع ثرة تستقى منها الشعوب والأمم .
وفي أبي الأنبياء إبراهيم نجد هذه المعاني سهلة موفورة !

قد يكون العلاسفة الإنسانيون وصلوا إلى طائفة من حقائق الإيمان الذي لا ريب فيه ، غير أنك تشعر بأن عليها طابعا من الجهد العقلي الذي يصعب دائما تفكير البشر وهم يحلون الألغاز ! !

أما إبراهيم صلوات الله عليه فهو يعرض الإيمان كأما يعرض شعاعا من أمتعة الشمس ، تحس بعناصر البداة السمحة تناسب معه ، وآيات الفطرة الخاصة تخاطب النفس خطابا لا تملك معه إلا التصديق .

وإلا شهدت على نفسها بالحاقة ! !

إن الله قذف الهدى في بصيرته والعمق في بصره
« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ »
وفتح أمام ذهنه الآفاق فهو يجول في رحاب السماء والأرض
« وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ »
فلما أراد هداية قومه إلى الله سلك معهم هذا الهج اللاحب . وأراد أن يرتفع همهم من حضيض الوثنية إلى مستوى أرقى .. إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والأنبياء لا يصنعون هذا الإيمان إلا بأسلوب واحد هو « ترقية اللب وتزكية القلب » وكيف يتم هذا ؟ وكيف يرضى به المستبدون ؟ .

إن الحكام المسبدين كالخشرات القذرة لا تعيش أبدا في جو نظيف ، ولا تنصب شباكها للصيد والهلب إلا حيث الغفلة السائدة والجهالة القائمة .

وقد اتسع المجتمع في عهد إبراهيم ملك مجرم يزعم أنه يحيى ويميت ، وهب ينازع ربه سلطته في كونه .

ولم يشأ إبراهيم أن يمضى في جدل طويل مع هذا المتسلط الغيِّ فقال له :
« إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين » .

والعجب أن إبراهيم تعرض للأذى ، أما هذا الملك فلم يصبه من عبيده شيء . ١١ جاء إبراهيم يقول للناس :

« إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له . إليه ترجعون » وتتابع الدلائل أمام الأعين المغلقة تلتقيهم إلى بداية الوجود ونهايته وتزيح الغشاوات المضروبة ليتعلم الناس كيف يعرفون ربهم ويولونه وحده وجوهم :
« أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شيء قدير » .

من الذي ينظر؟ ومن الذي يسير؟

إن الشعوب المهضومة لا تنظر إلا بإذن ولا تسير إلا بأمر . وطواغيتها يكرهون أن يفتح مصراع واحد من نوافذ المعرفة .

أولست ترى كيف بقيت إلى اليوم شعوب الجزيرة العربية متأخرة عن قافلة الحضارة نحو عشرين قرناً ، وأنها تعيش في مثل جاهليتها الأولى؟؟ إن هذا صنع الاستبداد الأعشى فهو عدو العلم والتفكير .

ولذلك ذهبت دعوة إبراهيم صرخة في واد . وكانت الإجابة العاجلة لمناشدته إياهم ، أمراً بإهلاكه :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أقتلوه أو حرقوه... »

فلما نجاه الله من بطشهم شيعة هذه الكلمة .

« إنما إمتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا

ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » .

وفي شعيب مع مدين تفجؤك ألفاظ التهم والسخرية .

« قاتلوا يا شعيب أصلاتك تأمرُك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن

تفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد » .

فإذا قال لهم :

« ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح

ما استطعت » .

قالوا له :

« يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ،

ولو لا رهطك لرججناك » وما لبثوا أن اطمأنوا إلى أن رهطه لن يقف

عائقاً دون إزاحته وإسكات دعوته ، فطلبوا إليه أن يدخل في شركهم وفسادهم

أو يخرج من القرية ! .

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب

والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . قال أولو كفا

كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عذنا في ملتكم بعد إذ نجاننا

الله منها » .

إن عقول المستبدين لا تعرف مبدأ التفاهم ولا تطبيق الأخذ والرد للوصول

إلى الحق ! ويكاد لا ينبعث صوت للخير حتى يلاحقه سوط من الإرهاب يطلب إما إخراسه وإما قتله !! .

وعندما فرض هذا الإستبداد نفسه على الأديان — فيما بعد — ! وضع مبدأ من قال لشيخه لم ؟ فقد حُرِمَ بركته ؟ .
وإذا فكيف تسير الأمور ؟ .

تسير بالأوامر العسكرية الجافة تصدر من شخص خلقه الوهم إلى أشخاص لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا لغیرهم قدراً ولا رداً . ! !

إن قضية الإيمان نفسه هي قضية العمر بل هي قضية الخلود إما في نعيم أو جحيم ، هذه القضية الجليلة أبي الله لها أن تأخذ هذا المسلك الدليل ، فجعل الإيمان عملاً عقلياً لا عملاً آلياً وارتضاه ثمرة تفكير ناضج لثمره تقليد أعمى وعلماء الإسلام لم يقبلوا إيمان المقلد ، مادام يستطيع التفكير الحر ، أما البله والمغفلون والأذيال ، فأولئك قد يقبل تقليدكم لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

ومطاردة الرأي الناصح يتبعها فساد المجتمع ، حتى إذا انفرد الطغيان بالحكم قال لمن لا ينسجم معه : اخرج من هنا ، كما حدث لشعيب وكما حدث للوط والأطهار الداعين معه إلى العفاف ، ما إن استنكروا الفاحشة حتى طولبوا بترك البلد ؟ .

« وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناسٌ يتطهرون » .

وقد يقال : إن هؤلاء الرسل ووجهوا بتكذيب عام وإن قومهم تألبوا عليهم جميعاً ، سادة وعبيداً ، حكاماً وشعوباً ، فلم يحمل الكبار وخدم وزر الكفر ؟ وهذا خطأ . فالحق أن الدعوة تبدأ عامة ، يتردد صداها في أذهان

الحاكم والمحكوم ؛ الغنى والفقير ، السراة والأتباع . ولكن بذرة العناد والتحدى تولد أولا في بيئة أصحاب السلطة ، ثم يلتحق بهم أذنابهم وسفهاؤهم ولئن كان الوزير الأكبر يقع على طغاة الحاكمين فإن بعضه مصيبٌ حتما من ساروا على غير هدى وراء أئمة يدعون إلى النار . ومن ثم يقول الله في أولئك المستبدين : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لِيَخِيلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » .

ويبين أن الضلال عدوى . وأن جرثومته تسرى في دماء مُلاك السلطة « بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . وكذلك مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . قَالَ أُولَؤُا جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » . وقد اطردها هذا الجحود لرسالات الله ، وحُرمت أم شتى من الانتفاع بها لوقوفها عند رغبات حكامها ، وتلاشت الحريات الفردية تقريبا ، وأصبح الجمهور يؤمن أو يكفر بإيمان رئيسه أو بكفره .

ولعلّ هذا هو سر اتصال رسول الله — محمد بن عبد الله — بملوك عصره يعرض عليهم الإيمان بالله ويحملهم آثام من وراءهم إذا هم أبوا إلا الكفران .

إن فساد أولئك الرؤساء أساس فساد كبير يعتري الأمم ، وإن صلاحهم يغلق أبوابا جمة من الشرور . فلما كفروا . لم يبق بدٌّ من تحطيم السلطان الذي يتدعون به لنشر الجهالة وإقرار الفوضى .

وفي رسالة صالح لثمود تبدو لك هذه الحقائق نفسها . فقد طالب صالح الجمهور أن يجمع من عنقه طاعة المستبدين ، وخوفهم عقي ركونهم إليهم
 « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ »

غير أن هذا النصح ذهب سدى . ولما اتهموه بالسحر وطلبوا منه معجزة
 تشهد له وآتاهم الله الناقة، عدا عليها كبير ذو منعة من رؤساء القبيلة فقصرها . !

أما هود مع عاد فقد ووجه بأقبح رد ، دعاهم إلى الله فقالوا
 « إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ
 بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ »

وماذا يجدي النصح الأمين مع قوم أغرتهم قوتهم بالتطاول والبذاءة ؟
 كانت عاد تضم صنفاً من العالقة ذوى الجبروت والبأس الشديد ، إذا
 خاصموا قصوا الظهور ، وإذا سالموا استرخى لهم عنان الدعة فعبثوا وأفسدوا
 فقال لهم هود :

« أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَكُمْ
 تُخَلَّدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » ؟ ؟

بل احتاج الأمر في إرشادهم إلى تذكيرهم بأن قوتهم التي يعتدون
 بها لن تبلغ قوة خالقهم .

« وَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا : مِنْ أَشَدُّ مِنَّا
 قُوَّةً . أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً . وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
 يَحْدُونَ » .

وأناة المرسلين في مقابلة شتائم المكذبين لها حكمة ملحوظة ، قليل من الناس من ينكشف لهم خطوهم القديم على عجل . وقليل ممن تعرفوا أخطاءهم يسارع إلى النزوع عنها والتزام سبيل الرشاد .

والمصلحون في علاجهم لأمراض الأمم يُعطون فرصاً طويلة لشعورهم حتى يتعلم الجاهل ويثوب الشارد ، فالزم من جزء من العلاج ، والصبر على لأواء الناس ضرورة لإنجاح الرسائل ، ولذلك لم يجزع هود عليه السلام من تسفيه قومه له ، وغلظتهم معه .

وكذلك رأينا النبي محمداً صاحب الرسالة العظمى يسمع ألقاظ السخرية « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » فلا يرى هذه الأساليب إلا حماقة صبية ويمضي في طريق دعوته لا يئني عزيمته شيء .

ومن رحمة الله بالناس أن يطيل الأمد على هؤلاء الكافرين حتى يعذروا من أنفسهم ، فالأثم لا تعاقب بعد كفر ساعة أو كفر شهر ، وإما بعد أن يتبين أن بقاءهم سبباً للحياة وفساد للأحياء !

وقد أمر الله رسوله أن يتحمل تبعات ذلك مهما تناهت السنون . « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

وكذلك أمر أصحاب الرسول ممن يحملون معه أعباء الدعوة ويكافحون لصرها : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » .

من لدن نوح إلى محمد عليهما السلام ترك للعقل الحرّ مجال فسيح يناقش فيه الرسائل التي أتته ، لم تحمل ديانة ما في طياتها عنصر الإكراه والقسر على الإيمان .

يقول نوح للناس :

« أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ » .
ويقول الله لمحمد :

« أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ »

ويقول نوح للناس :

« إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » .

ويقول محمد للناس :

« لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

وبين نوح ومحمد عصور بعيدة كان السفرة الكرام البررة يحملون للناس صحائف بيضاء من وحى الله عز وجل وهُداياه ، تترقب فيها السباحة الرائعة ، فهل استحيى الطغاة وتركوا المرسلين يسلكون طريقهم في سلام ؟ كلا ! إن الاستبداد الأعشى عدوٌّ منذ الأزل لدعوات الخير والبر والاسنقامة والإصلاح .

في أيام كالحة من وطأة الاستبداد بالناس أرسل الله عيسى بن مريم رسولا رقيق القلب نبيل العاطفة ، وكانت السمة البارزة في رسالته مواساة الضعفاء ، ورد اعتبار المضطهدين والفقراء ، والرفق بالعصاة حتى يهتدوا ، وبالقساة حتى

يلينوا وكأت اليهودية قد فسدت بين أيدي أتباعها ، بل كان أحبارها لا يقولون
قسوة قلوب عن حكام الرومان الأشداء .

فلما جاء عيسى صلوات الله عليه ترك رجال الدين ورجال الدنيا جميعا ولزم
الحياة مع الضعفاء والمرضى والأرامل والبائسين ومدأ جانب الطبقات الفقيرة
ينتعش ، وأحس حراس المظالم بالنيام يستيقظون وبالمشردين يتجمعون ، وأن
الأرض توشك أن تميد تحت أقدامهم ، فقررُوا قتل عيسى وتشريد تلامذته ،
ومصادرة تعاليمه !!!

وكل المستبدون العميان تنفيذ خطتهم إلى فرقة من الجند . ولكن
عيسى نبيا ، وفرّا أكثر تلامذته إلى أقطار نائية

بيد أن ذلك لم يوقف الحرب الفاجرة على الديانة الجديدة ، فقد تتبع
الرومان كل ما يدل عليها بالإحراق ، وكل من ينتمى إليها بالقتل أو النفي ،
ولم يلمّ المسيحيون شعهم إلا بعد قرن من اختفاء عيسى

وإذا كانت محنة منتين وقعت بالإخوان المسلمين في مصر قد أودت
بعشرات الألوف من صحفهم . إذ كان العشور بورقة منها عند شخص ما كافيا
لجلده أو نفيه — فكيف بمحنة ظلت قريبا من الزمن ؟ تضافر فيها مقت الدولة
المستبدة ، وكراهية اليهود أنفسهم لهذا الدين ، ونبيلهم من صاحبه ، الذي
كانو يرمونه ويرمون أمه معه بالإفك ؟ ؟

لقد أثر ذلك كله في تاريخ المسيحية . فإشاعة قتل عيسى تحوّلت عقيدة
جازمة ! والصحائف التي كتب فيها الإنجيل اختفت كلها . ثم جاء نفر من
الناس ألفو سيرا لعيسى من ذاكرتهم تضمنت ما تراعى إليهم من أخبار ،
وما وصل إليهم من تعاليم .

وهذه السير المؤلفة هي ما يسمى بالأناجيل . . . ! !
ولكن هل استطاعت المسيحية أن تستأنف سيرها حقاً ؟
كلا ! . إن المسيحية الأولى ذابت في حريق العسف والجبروت الذي
اشتعل زمنًا . فلما عاد هذا العنوان إلى الحياة لم يكن يرمز إلى حقائق دين نزل
من السماء قدر ما كان يرمز إلى جملة من تعاليم الفلاسفة وكهان مصر والهند .
فالتوحيد السهل أضحي تثليثًا معقدًا .
والله الواحد ، رب العالمين ، أضحي مجموعة أقانيم يختلط فيها الأب
بالابن بالأم .
ولعل هذا التطور الطارىء هو الذى جعل الوثنية الرومانية تغضى عن
الديانة التى طالما خاصمتها .
ثم جاء بعد ذلك الأمبراطور « قسطنطين » فاعتبر المسيحية الجديدة دين
الدولة الرسمى .



هذه لمحات عاجلة لعمل الاستبداد السياسى فى الأديان
حاربها على لسان كل نبي جاء بها ، وأضل الجماهير المستضعفة عن
الانتفاع بها والتسليم لها ، وأبقى طابع الفساد والظلمة على القرى التى
امتلكها ، وأخفت صوت الإصلاح أو أكرهه على الهرب من وجهه
فلما ظن أن الأمر استتب له وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب
لكم اليوم من الناس ؛ حلت به النعمة الجائئة
« فكلًا أخذنا بذنبيهِ ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ، ومنهم من أخذته
الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

واستوى في العذاب السادة والأذئاب ، وتلك شرعة الله العادلة في العقاب .

وعندما يستقر الطغاة في سقر يرمى إليهم بفوج من أتباعهم ويقال :

هذا فوجٌ مُقْتَحِمٌ معكم . . » فيردون :

« لا مرحباً بهم ؟ إنهم صالوا النار ؟ . قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم

قد مُتِمُّوه لنا فبئس القرارُ . وقالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً

في النار . »

الحرية العقلية

الحرية العقلية كما رأيت من استقراء قصص المرسلين ركن في الدعوة إلى الله

بل هي ركن في صحة العمل الإنساني ليستحق الثواب أو العقاب

وقد جاء الإسلام فتمشى مع هذا المبدأ وجعل اليقين الصحيح ثمرة النظر

العميق في كتاب الكون المفتوح ، وقراءة آيات الله المبثوثة في الآفاق .

والقرآن الكريم دعوة ملحة إلى معرفة الله عن طريق التدبر في ملكوته

والتفكر في صنوف خلقه

بل إنه ليعتبر الكفار دواباً لأنهم عطلوا حواسهم وأهملوا مشاعرهم

وأهدروا نعمة العقل التي أكرمهم الله بها وزاد القرآن في تقدير الحرية العقلية

عنصرًا لم يكن موجودًا في الديانات الأولى ، هو ما أشار إليه النبي صلى الله

عليه وسلم في قوله « ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ،

وإما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم

تابعاً يوم القيامة »

يعنى أن معجزات الأنبياء السابقين كانت خوارق للعادات ، يسلمها العقل

عن قهر ، لأنه لا مدخل له فيها .

أما المعجزة التي تميزت بها الرسالة الخاتمة فأساسها كتاب يحاطب العقل خطابا مباشرا . فما بقى على الأرض عقل بقى أمل فى الإيمان بهذا الدين . ومن هنا رجا النشئ أن يكون أكثر الأنبياء أتباعا . . .

وقد يحدث أن يُكره المرء ولده على الذهاب إلى المدرسة ، أو يكره مريضه على الذهاب إلى المستشفى . ويجد نبل الغاية مسوغا لهذا الإكراه ، ويعتبر قصور الطفل عن فهم مصلحته وتوجس المريض من مرارة الدواء الذى يتجرعه أو الجراحة التى تجرى له — يعتبر ذلك مبررا لفرض إرادته تحقيقا لنفع محض . . .

ربما حاول بعض المؤمنين بدافع من الثقة فى صدق دينهم أن يحملوا الآخرين على الدخول فيه . يقصدون بذلك إدخالهم فى الجنة وإنقاذهم من النار ؟ وخصوصا إذا كان هؤلاء أولادهم أو أقاربهم .

حدث على عهد رسول الله أن كان لرجل من الأنصار ابنان تنصرا قبل البعثة ، ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يتاجرون فى الزيت ، فلزمهما أبوهما . وقال : لا أدعكما حتى تسلما فأبوا ، واختصموا إلى النبی صلى الله عليه وسلم : فقال الوالد : يا رسول الله ، أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ .

فرفض الرسول حملهما على الإسلام ! وأمر بتخليفة سبيلهما ونزل قول الله « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . والله سميعٌ عليم »

إن الإكراه لا يكون العقائد . إنه على العكس ينقر منها ويسىء بها الظنون وطبائع الأشياء ترسم للعقائد طريقا يبدأ حتما من الحرية العقلية المطلقة . .

تنزاحم الأفكار والمبادئ أمام الإنسان فيؤثر منها ما يراه أولى بالاعتناق وأجدر بالاتباع . فإذا اختار فكرة ما خلطها بشعوره ، ورأى على توالى الأيام أنها أصبحت شطر نفسه ، ثم تمتزج بعقله وعاطفته فيصدر عنها في تصرفاته ويحب ويكره على أساسها ، وتزداد الفكرة تغلغلا في وعي المرء ، فبعد أن كان يدفع عنها كما يدفع عن نفسه ، يفتديها بنفسه وأولاده وما يملك . . . والناس ليسوا سواء في هذا المنطق . لأن منهم من لا يحسن التفكير والموازنة ! ومنهم من يعرف الحق ويصدق عنه ! ومنهم من يعرفه ويعتقه . . . ثم ينزل عنه تحت عوامل الترغيب أو التهيب !

ومنهم المرتزقة الذين يؤمنون بالمال ويكفرون من أجل المال يذكرون أنفسهم كثيراً ولا يذكرون الله إلا قليلاً . . .

ومهما اختلفت مشارب الناس وكشفت عن معادهم تجارب الحياة فإن الدعامة الأولى للتدين حرية العقل والإرادة ، والمهج الأول للنبيين تربية الأم بالإقناع والمحبة . وإثارة مشاعر الإعجاب والإقدام في نفوسهم . وقد فعل ذلك صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله .

ماذا كان يملك من القوة حتى يكره الناس على الإيمان ؟

لقد جمع الناس على الله وسط عواصف عاتية من الغضب والمطاردة والعدوان . وأشعل مصاييح الفكر بعد ما أطفأها التقليد وأخمد الركود . وساق الدلائل البينة على صدق دينه فاحتشدت من حوله الأبواب النيرة والقلوب الموقنة ، وظل حياته يكافح فتن القبائل المغيرة . ويكلف صحبه أن يغرّموا من أنفسهم وأموالهم للذود عن دينهم فكانوا يسارعون إلى

ذلك في سرور وترحيب ، وجاءت أيام كان النطق فيها بكلمة التوحيد إشارة للهجوم وإستباحة الحقوق .

ومع ذلك قالها من انشرفت بها صدورهم وطابت بالبذل في سبيلها أنفسهم ..

مر وبين الفينة والأخرى من مراحل العسف يجيء المشركون إلى الرسول وعبه يحسبون أن التعذيب نال من يقينهم وأن ظلام المستقبل سيرجعهم إلى جاهليتهم فإذا بهم يسمعون إجابة القرآن :

« قل : إني نهيتُ أن أعبدَ الذين تدعون من دونِ الله ، قل : لا أتَّبِعُ أهواءكم قد ضَلَلْتُ إذاً ، وما أنا من المهتدين . قل : إني على بَيِّنَةٍ من ربي وكذَّبْتُمْ به .. ما عندي ما تستعجلون به إن الحكمُ الا لله يقيضُ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين » .

كان المشركون يتوقعون أن يكبح الرسول عدوانهم بقوة تأتيه من السماء ! فهم لفرط تكذيبهم يستعجلونها . وفي استعجالها لون من السخرية والتحدى يكيدون به المستضعفين من المؤمنين :

غير أن الرسول وصحبه مكلفون بالصبر على هذا الكيد وان حَزَّ فيهم .
« قل : لو أنَّ عندي ما تستعجلون به لَقُضِيَ الأَمْرُ بيني وَبَيْنَكُمْ واللهُ أعلمُ بالظالمين »

فهل هذا المجتمع الذي — تربي فيه المؤمنون الأولون — يحمل أثارة من إكراه على دين ؟؟

وصف^(١) « أرفنج » مواكب الحجيج تسير حاصرة في شمس الصحراء

(١) ترجمة الأستاذ محمد ركي عبد القادر .

المحرقة يحفّ منها الريق ويتصبب العرق . ولكن القلب ينضج بنور
الإيمان ، فإذا بهم يجتمعون من مشارق الأرض ومغاربها ليققوا خاشعين
أمام مبعث النور ومهيبط الوحي ، أية قوة جمعهم وأخت بينهم ؟
الفقير المعدم من وسط « أفريقيا » إلى جانب مهراب الهند الذي
يساوى وزنه ذهباً .

الملك المسيطر في أقصى الشرق ومعه الصلوك الذي لا يجد قوت
يومه^(١) !!

أية اشتراكية ؟ أية مساواة ؟ أى سحر ؟ هذا الذي نفذ الى
القلوب فمحا كل الفروق التي يسيل من أجلها الدم ، وتقوم الحروب ، وتفتنى
الحضارات ! ! انها معجزة . . هل تمت بقوة السلاح ؟
كلا .. كان هانيبال والإسكندر وجنكيزخان وشارلمان ونابليون
وعشرات من آلهة الحرب يدكون المدن والدول ، ويسرى الرعب
والخوف في ركابهم ومع ذلك ذهبوا ، وذرت الرياح ماشيدوا وأسسوا :
ولكن محمد بن عبد الله ، هذا الأُمى الفقير ، الذي مات وهو ينخسف
نعله بيديه ! ذهب جسده ، وبقي روحه ودينه ! وظلت رايته عبر القرون
مرفوعة في المحنة والنعمة على السواء لا تسقط ، ولن تسقط أبداً ..

منذ مائتي سنة وقف بريطاني كبير في نافذة قصره ، في ضواحي
« لندن » وأرسل بصره بعيداً ، بعيداً الى الشرق ، وسأل صديقه : أنظن
الشرق يموت ؟ فأجابه : كلا ! إن روحه تحييه

أجل إنها روح محمد لاسيفه ، ولن يغضّ من ذلك إرجاف المستشرقين
المزورين وخصوم الإسلام الأفاكين ..

(١) هذا التفاوت يقع بين مسلمي اليوم ويكره دين محمد .

القتال . . .

ليس محمد صلى الله عليه وسلم أول نبي حارب ، ولا آخر مُصلِح اضطر
أن يحمل السلاح .

وقد رأيت من استعراض الرسائل الأولى أن أكثرها ذهب ضحية
الكيد الخبيث والمكر السيء . وما دامت طبيعة الحياة لا تخلو من مُبغضين
للحق ومعوقين لسيره ، فإنه لا يستغرب من أصحاب الحق أن يضعوا تجارب
الماضى الطويل نصب أعينهم ، وأن يتأهبوا لكفاح مرّ ضد أعدائه .
وليس العيب أن تكون مُدججاً بالسلاح ، وإنما العيب أن تسطو
سلاحك على الوادعين ، أو ترؤّع به الآمنين ! .

إن البشر لما كانوا بضعة إخوة ، وقف أحدهما في طريق الآخر مبارزاً
بالعداوة مُستحِلاً للدم .

« وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ
أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ
مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وما لبث هذا التهديد أن استحال إلى جريمة نكراء .
« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ » .

فإذا سل الأخ القاتل ألوفاً من السفاحين المتعطشين إلى الجريمة ،
فهل ينتظر العباد الذين تقبل الله قربانهم ، وزكى أفئدتهم أن يقادوا إلى المجازر
قود الخراف الطيعة ، لا يدفعون بأساً ، ولا يردّون عدواً ! .

هذه هي الحماقة ، والاستمساك بالسلم في هذه الحال خطوة إلى الفناء ،
ورضا بالذبح . . .

ذلك منطق الواقع ! وقد تمشّى معه فرض القتال على المسلمين ، ومن
قبلهم على النصارى وعلى اليهود ، فليس القتال فريضة انفرد الإسلام بتقريرها

بل سبقت الأديان الأخرى إليها ، ونهضت بقتعاتها ، والآية التي شرعت القتال في الإسلام تشير إلى هذا التاريخ القديم .

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا اللَّهُ » .

هذا الجزء من الآية ناطق بأن المؤمنين هم الذين قوتلوا وظلموا وأخرجوا من بيوتهم . وأن هذا الهجوم الواقع بهم لاعلة له إلا أنهم مؤمنون . فهل يسكتون على الضيم ؟

إن نهاية هذا السكوت تدميرهم وتدمير رسالاتهم معهم .

لا بد من دفاع يحفظ به أتباع موسى وعيسى ومحمد جميعاً معابدهم التي يؤدون فيها حق الله عليهم .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

إنها حرب حقاً ، أذن الله بها سياجاً للهدى وصيانة لمعاليه ، لم تشعلها مآرب النفوس ولكن فرضتها دواعي الغضب لله .

لم أكن من جناتها علم الله وإني بمرثها اليوم صالى وتمحيصاً لنفوس من خاضوها بئذ الوعد بالنصر فيها لمن لا يستغل نتائجها لشخصه ومفاتيح دنياه بل لمن يوجه ثمراتها إلى تمكين دينه وتوطيد عقباه .

« الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » .

فأى مطعن قد يتصيد لهذا القتال ؟

وليست الحكاية فيه عن المسلمين فحسب ، وإنما عن كنائس النصارى
ويع اليهود وصوامع العباد من كل لون .

وقد بين الله أن هذا القتال ضرورة لحفظ كل دين سبق ونصرة أنبياء
الله جميعاً ، ومن ثم ذكر أن الجزاء الموعود من نعم الخلود ، لم يسجل في القرآن
وحده ، بل زفت بشرياته في الكتب الأولى .

« وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » .

ومع ذلك فإن فريقاً من الملحدّين الحاققين على الإسلام يُظهرون فريق
آخر من أهل الكتاب الفاشلين ، حَلَّاهُمْ أن يتحدثوا عن القتال في الإسلام
كأنه بدعة انفرد بها في الأولين والآخرين .

بحث علمي أم دعاية استعمارية ؟

إن الغرب المسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .
الغرب الذي يجرّ وراءه ألوفاً من الأمم المأسورة ، والدول المقهورة ، بعد
ما كسر شوكتها بقوته الباطشة .

الغرب الذي رسم الصليبان — رمز التضحية — على رايات تظلل جيوشاً
طالما اشتغلت بالسلب والنهب ، وانطلقت في مشارق الأرض ومغاربها تثير
الرعب والفرع .

هذا الغرب العنيد هو الذي ينشر بحوثاً علمية نزيهة (!) لإثبات أن
الإسلام قام على السيف . ذلك جهد كثير من المستشرقين الذين أخضعوا
العلم لنزغات الهوى والتعصب الذميم .

ومتى يقال هذا ؟ في الوقت الذي جثم فيه الغرب المسلح على الشرق الأعزل
يبغى هلاكه والقصد البين منه تسويغ منطق القوة العمياء الذي

نعامل به ، وصرفنا عن إعداد العُدَّة التي نسترد بها خسائرنا ، ونحامي بها عن مقدساتنا ، وقد وصل ساسة الغرب ومستشرقوه إلى هدفهم ، وتكوّن جيل من المسلمين يحسن الظن بمستقبل الحق العاري عن القوة فكان الفشل مصير قضايانا كلها ، وأصبح البغاث يستنسر بأرضنا . !
ألسنا أهل رأى لا أهل قوة ؟ .

لو كنت من مازن لم تستبح إلى بنو القبيطة من ذهل بن شيبانا
لكن قومي - وإن كانوا ذوى نفر- ليسوا من الشرفى شيء - وإن هانا -
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحسانا
كان ربك لم يخلق لخشيته ! سواهم من جميع الناس إنسانا ! !
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا شنوا للإغارة فرسانا وركبانا

من النقائص أن الإسلام دين عُرف عنه العدل الحاسم فهو يقول :
« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .
أتبع العدل الفضل فقرر الأول ورغب في الثاني فاعترف بالعقوبة وأثاب على المغفرة . . .

أما المسيحية فقررت السماحة رأسا ، وأوصت بأن « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . .

فلما طبق أهل كل دين ما عندهم وأقاموا في أرض الله دولتهم كان المسيحيون يبادرون إلى لطم من يلقاهم ، وكان المسلمون يقابلون السيئة بالحسنة .

فعندما دخل الصليبيون بيت المقدس في القرون الوسطى ذبحوا سبعين ألف مسلم ، وكتب القائد المسيحي إلى البابا يشره بأن منابك خيله تخوض بحراً من دماء المسلمين .

فلما استرجع المسلمون البيت بقيادة « صلاح الدين » أعلنوا عفواً عاماً وسمحوا لأعدائهم بالمهجرة موفورين . . . وقد حفظت دول أوربا هذا الصنيع وردته في عصرنا الحديث إلى المسلمين مضاعفاً حين استجلبت اليهود المشردين في أنحاء العالم ، وأسكنتهم دور العرب بفلسطين ؛ وتركت ألوف الأسرى في العراء ، لاجئين يعيشون على البرد والطوى ، ويحصدون القتل والهوان والمرض . نحن نعلم أن المسلمين والنصارى أخطاء لا يسأل عنها الإسلام ولا المسيحية بيد أنه إذا كان لابد من الحديث عن السيف وانتشار المبادئ به . فآخر من يتكلم عن ذلك أهل أوربا الذين لا ينتسبون في أفعالهم إلى دين أو شرف . .

رَدُّ العدوان

دعامة الجهاد في الإسلام دفع البغى وكسر شرمة المعتدين .
« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . واقتلواهم حيث تَقِفْتُمُوهُمْ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » .
فلا يجوز لمسلم أن يعتدى لأنه يتعرض لسخط الله ، وإذا اقتصر لعدوان وقع عليه فليرد اللطمة بمثلها لا يزيد .
« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .
هذه تعاليم من ناحية مظهرها — تحمل طابع الدقة ، ومن — ناحية جوهرها — تنضبط بقيود مشددة من تقوى الله ، الذى حورب المؤمنون من أجله سابقاً ، ويحاربون باسمه لاحقاً ، ولا نعرف عفاً في ردع الأشرار وحماية الذمار ، والإمساك بزمام القوة حتى لا تطفئ كهذا العفاف الذى أسر المسلمون به .

وهناك نصوص أخرى سنسردها ونشرحها ، لأن النظر القاصر أو العاثر قد يراها مخالفة لهذا المبدأ الأصيل .

وقبل أن نفعل ذلك نريد أن نذكر بحقيقة لا معدى عن توكيدها وإن كانت بدئية . هي أن قطع النص عن السياق الذى جاء فيه والملاسات التى تكتنفه يؤدى بنا إلى إفساد النص ومسح معناه أى إلى تحريف الكلم عن مواضعه . ولعل من ذلك قول الشاعر المهذار :

ما قال ربك ويل للأولى سكروا ! بل قال ربك : ويل للمصلينا !

ومن الناس من يستدل على ميل الإسلام إلى العدوان وإيقاعه الفتن وتحريشه بين البشر بحجج لا تخرج فى نسقها عن طريقة هذا الشاعر الخمور . . .

مثال ذلك أن يحىء أحدهم إلى آية من عرض السورة فيبترها عما قبلها وما بعدها مثل قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » فيفهم من الآية أن الإسلام ينهى نهياً جازماً عن مصادقة اليهود والنصارى ويوجب قطع علاقاتهم ويهدد المسلم الذى يصادقهم بأنه انفصل عن الإسلام والتحق باليهودية والنصرانية ! وهذا كما ترى ، ما تشير إليه الآية مُجَرَّدَةً ، والمعنى بهذا التعميم باطل ! والآيات اللاحقة بهذه الآية المرتبطة بها فى موضوعها تحدد الموضوع بجلاء لا يحتمل خلطاً ، فالحق أن الآيات نزلت تطهيراً للمجتمع الإسلامى من الأعيب المناقضين ومن مؤامراتهم التى تدبر فى الخفاء لمساعدة فريق معين من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين

حرباً شعواء واشتبكوا مع الدين الجديد في قتال هو — بالنسبة له — قتال حياة أو موت .

فاليهود والنصارى في هذه الآية قوم يحاربون المسلمين فعلاً ، وقد وصلوا في حربهم إلى منزلة من القوة جعلت ضعاف الإيمان يفكرون في التحجب إليهم والتجمل معهم . فنزلت الآية المذكورة ونزل عقيبها وفي نفسها ما يفضح نوايا المتخاذلين في الدفاع عن الدين الذي انتسبوا إليه « فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ : نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ » ثم تستطرد الآيات في تعليق المؤمنين بدينهم وتوصيتهم بتدعيم صفوفهم وتذهب عنهم وحشة الغربة بعقائدهم وسط المتربصين والمتهجمين . . ثم تعود مرة أخرى لتؤكد مقاطعة المحاربين للإسلام من أهل الكتاب مسوغة هذه المقاطعة بأنها ردٌ للعدوان « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

فهل ثم ضيرٌ على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة السفهاء الذين ينهكون بتعاليمه ويسخرون من شعائره ؟ .

وهل يعتبر هذا تحدياً أم بعداً عن أسباب الخصومة والتحدى . ؟

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ » .

فآية مقولة ، والخصومة بين المشركين في مكة والمسلمين في المدينة على أشدها ، والحرب الدائرة بين الفريقين لما تستقر على نتيجة حاسمة . وقد أعلن للشركون هذه الحرب لأول مجاهرة بالدعوة ، ثم زادوها حدّة بطرد المسلمين من ديارهم وأموالهم . ولذلك مضت الآية تقول :

« يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ، أَنْ تَتُومِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ » .

والمودة التي نزلت الآية باستنكارها ، يستنكرها كل نظام حربي في الدنيا . وهي — كما روى — معلومات عسكرية أسرّ بها صحابي في حالة ضعف نفسى إلى قادة الشرك بمكة ولولا يقظة المسلمين والرقابة التي فرضوها على الطريق لوصلت هذه المعلومات إلى خصوم الإسلام فأضروا بمستقبله أبلغ الضرر إن ولاية الكفار — والحالة هذه — خيانة عظمى .

وقد همّ عمر بقتل صاحبها . لولا أن للرجل ماضيا كريما جعل الرسول يعفو عنه ! .

وفي التعقيب على هذه الحادثة ما يدل على اتجاه الإسلام الحار إلى المسالمة والصفح فقد جاء في شأنها قول الله عز وجل :

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مودةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ »
والله غفورٌ رحيمٌ » انظر كيف يترقب عهد الأمن والطمأنينة بشوق ورغبة؟؟
أجل إنه يترقبها ويكشف في صراحة أن سيادة المودة والصفاء بين الناس أصل في تقرير العلائق بينهم وأن طوارئ الخصومة ومظاهر الجفوة يجرها الآخرون بتعديهم واستهتارهم . وأن الإسلام وأهله أبرياء من إثارتها . ولذلك يمضى النظم الإلهي الكريم في التعليل لمنع الموالاة فيقول :

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » . إنما ينهاكم الله عن الذين

قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ،
ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون .

هل يستغرب من الإسلام أن يكرّهُ عرب فلسطين في اليهود الذين
طردوهم من مدنهم وقراهم واحتلوها ؟ أو هل يستغرب منه أن يبغض هؤلاء
العرب المتهورين في الإنجليز والروس والأمريكان الذين أعانوا اليهود على هذا
السطو ومكنوهم من قتل الأبطال واستباحة النساء ؟ ؟

أو هل يستغرب من الإسلام أن يثير حفاظ القاعدين ، ويؤجج نيران
المجاهدين حتى يسترجع المهزومون ما فقدوا ، ويكتسحوا أعداءهم أو يستأصلوهم
إذا بقوا مكابرين يياطلهم ؟

وهل يستغرب من الإسلام أن يعد مصادق اليهود في هذه الظروف المعنّية
خائناً لدينه عدواً لربه ولنفسه ؟

إن هذا ما صنعه الإسلام قديماً ويصنعه اليوم !

أما إذا اختفى العدوان وامتنع التحدى فالصداقة والتواصل والمودة
والتراحم عواطف لا حرج عليها بين المسلمين وأهل الكتاب أجمعين .

وحسبك أن الله أهدر اختلاف الدين في اختيار الزوجة ويسر للمسلمين
واليهود والنصارى أن تجمعهم مائدة واحدة وفراش واحد :

« وَطَعَامُ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي
أَخْدَانٍ » .

والدين الذي يسمح باختلاف الدين في بيت صغير تتلاقى فيه الوجوه ،
وتتقارب الأبدان وتشبك المشاعر ، لا يضيق ألبته باختلاف الدين في وطن

كبير تتسع فيه المصالح ، وتتعدد الحاجات والكفايات ، ويستحب فيه التعاون على بلوغ الغايات .

إن الإسلام لا يبسط يده بالأذى إلى أى من خلق الله ! وقد بعث نبيه رحمة للعالمين ، وبركة للناس أجمعين .

يبدأ الإسلام — وإن آثر السلام يبعث النية المدخولة ، ويحذر الصدور المنطوية على الضغينة وينبه أعداءه إلى أنه لا يجوز ، ولا يضام .

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ . . . »

منع الفتنة

كما يحارب الإسلام دفعا للعدوان ، يعي قواه كلها منعا للفتنة ! والفتنة التي تكرر في القرآن ذكرها على أن إطفاءها نهاية للحرب المعلنة من جانبه ، تعنى استغلال السلطة لمصادرة الحق ومطاردة أهله ، كما فعل ألوف الطغاة قديما وحديثا

وقد علمت أن الإسلام يبنى جهاده على أن الإكراه لا يؤسس عقيدة . فهو لا يضغط على أحد حتى يلجئه إلى الإيمان بالله واليوم ، الآخر وفي الوقت نفسه لا يقبل من قوة غاشمة أن تضطهد المؤمنين وترجعهم إلى الجاهلية التي طلقوها . والجو الذي ينشده الإسلام هو الجو الذي يتنفس فيه الإنسان .

هواء الحرية الطليق ملء رثييه .

يقبل المرء فيه على الرأي الذي يستصوبه . فلو ترك الإيمان بالله ورسوله لأنه لا يقتنع بذلك ، فليس من سبيل لأحد على إرغامه أن يؤمن . . . ! !

وهذا ما قرره القرآن الكريم في مواضع شتى .
 « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ » .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .
 « فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسِيْطِرٍ » .
 « وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » .

وقد خلط قوم من الباحثين في فهم هذه الآيات خلطا شنيعا وساروا فيها على نهجين متناقضين كلاهما شارد عن الصراط المستقيم ، فمنهم من فهم من هذه الآيات أنه لاحكم في الإسلام !! وأن نقي الإكراه يقتضى إسقاط الحكومة من تعاليم الكتاب والسنة

كأن ثوار فرنسا لما أعلنوا حقوق الإنسان وحرية الرأي المطلقة امتنعوا عن تكوين حكومة تمثل مبادئ الثورة !

إن الحكومة في الإسلام حق لا يحتل ريبة ، وهي لا تعنى - إذا قامت - لتنفيذ أحكام الإسلام ، أن تنهر رجلا على دين يرفضه ، فإن الحرية الدينية من أحكام الإسلام الذي تشرف الحكومة الإسلامية على تنفيذه .

وهناك فريق فهم أن هذه الآيات نُسخت بإقامة حكم يقاتل الكفار أبداً ، ويعلن عليهم حرباً شعواء لا تنتهى حتى يبيدوا . . .

كلا الفريقين مخطئ ، بعيد عن إصابة الحق في مقاصد القرآن ، فإن الدولة التى يقيمها الإسلام ممثلة لدعوته لا يمكن ولا يجوز أن تخرج في أساليب

الدعوة عن الحدود التي رسمها الله عز وجل ، وإلا اعتبرت خارجة على نفسها .
وأساس الدعوة الأول :

« اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

وأساس استخدام القوة للمقاصّة :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » .

وأساس إعلان الحرب هدم السلطات الفاجرة لتتوطد أركان الحرية
العقلية وتنزاح عوائق الاستبداد عن طريق الناس .
والقتال شرّاً ! ولكن لا بد منه لإزالة شر أشد . وعلى ذلك قبله الإسلام
ودفعه جنوده لخوضه .

لما استكثر المشركون القتال في الشهر الحرام ، وافعلوا ضجة كاذبة
للإرجاف بالمسلمين نزل قوله تعالى :

« بِسْأَلِنَاكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ! ..
وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ! وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » .

والفتنة هنا نشأت من تسلط الكفار على المؤمنين وإخراجهم بسبب
دينهم الجديد حتى أخرجوهم من ديارهم . وحق على الدولة المسلمة أن تكافح
هذه السلطة الجائرة ، فلا تتركها إلا مقلّة الأظفار ، مهشمة الأنياب . . .

وقد حضّ الله — سبحانه — على ذلك ، وأمر بمتابعة الهجوم على ذوى
السلطان الجائر ومصادر الاستبداد الأعمى حتى تطهر الأرض منهم .

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنْ

أَتْتَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ
بِعَمِّ الْمَوْلَى وَنِعَمِ النَّصِيرِ .

وهذا الأمر الواضح بالقتال حتى تنتهى الفتنة ذُبُلَ بمعانٍ تشير إلى
ملاسانه التى فرضته ، فإن تَرَكَ العتانون حرائمهم فيها ، وأمرهم إلى الله ،
ولا سبيل لنا عليهم ! وإن رفضوا استعنا بالله على كف أذاهم . . واستعدونا
لمعاودة قتالهم .

ذلك — والعرض المتعين من هذه الحرب — تعييد الطريق أمام الآراء
كلها ، ليمحض الحق والباطل . وعندئذ تتخير النفوس ما تهواه .

« وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » .

على أن هناك من يريد بالقوة إبطال الحق وإحقاق الباطل ! والإسلام
لا يترك أولئك أحراراً ، وما ينبغى له ذلك بل يُقاتل « لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ
الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » .

معاملة خاصة

غير أن مشركى الجزيرة العربية لم يمنحوا هذا القسط الكامل من
الحرية العقلية التى تبيح لهم البقاء على عبادة الأحجار إذا شاءوا أو الدخول
فى الإسلام إذا عقلوا . !

وفيهما قال رسول الله صلوات الله عليه : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ
حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ ،
وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ — إِلَّا بِحَقِّ
الْإِسْلَامِ — وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ »

والمراد بالناس^(١) في الحديث عبدة الأوثان من العرب خاصة — وقد أجمع على ذلك العلماء — فلم هذه المعاملة ؟ أو ليست إكراهاً على الدين ؟ ولماذا عدل الإسلام عن خطته الأصلية في عرض دعوته ؟ الآن أولئك الجهال قد أسقطوا كرامة عقولهم بعبادتهم أحجاراً صماء لا تسمع ولا ترى ، فحسنت زحزحتهم عنها بالقوة — وفي ذلك مصلحتهم كما لا يشك عاقل ؟؟

لا ، فلو كان الأمر كذلك لعامل الإسلام عباد المعجول والأشجار والأصنام بهذا الأسلوب في كل بلد نزل به . ولكننا نلاحظ أنه عامل المجوس معاملة أوسع وأرق ، وأعطاهم حق الاختيار بين دينهم والإسلام . . . أخرج مالك عن جعفر بن محمد أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس ، فقال : ما أدرى ما أصنع في أمرهم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعته من رسول الله يقول : سنوا بهم سنة أهل الكتاب .

وأخرج عن ابن شهاب قال بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس البحرين ، وأن عمر أخذها من مجوس فارس ، وأن عثمان أخذها من البربر .

الحق أن الإسلام أعطى مشركي الجزيرة حق البقاء على الوثنية ما طابت بها نفوسهم ، على أن يتركوا الحرية لمن هجرها إلى الإيمان بالله وحده فلا يفتنوه أو يضطهدوه . . . وظهر ذلك جلياً أول الإسلام من قوله تعالى : « قل يا أيها الكافرون : لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين » . . .

(١) من استعمال العام في الحساس كقوله تعالى : « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد هموا لكم ، فالناس الأولى من المنافقين ، والأخيرة مشركون »

بيد أن هؤلاء المشركين الحقى ركبوا ردوسهم وسيطرت عليهم فكرة
القضاء على الدين الجديد واستئصال شأفته والمغامرة بكل شىء فى سبيل محوه
ومحق أتباعه فإما طاحوا به ، وإما طاح بهم . وشاء القدر الأخيرة . .
فإن الرسول وصحابته ظلوا عشرين عاما يسمحون للمشركين بالبقاء على
دينهم ، راجين منهم أن يتركوهم وشأنهم ، ثم اتضحت نوايا المشركين الخبيثة
« إِنَّ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتَهُم بِالشُّوْءِ . وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ » .

« إِنَّ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ
بَأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » .

وصدق فيهم ما قال نوح فى قومه بعدما يئس من رشدهم :

« رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ
يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » .

فلم يبق بدٌّ بعد أن اختاروا لأنفسهم أن يبيدوا المسلمين أو يبيدوا — أن
يتخلص الإسلام من شرهم ، وأن يضعهم بين أمرين لا ثالث لهما .

وإذا صحت تسمية هذا المسلك عقوبة ، فإن حكمته مفهومة ، وتضييق
الحرية على المجرم وقاية للمجتمع من آثامه أمر جائز .

وهذا النظر فى إيقاع العقاب على مستحقه ينطبق مع أحدث الأفكار
النفسية والسياسية .

فإذا اتقى العدوان وأمنت الفتنة فلا مكان لقتال وحمل السيف عندئذ
جريمة وقد وضع القرآن الكريم ذلك :

« فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » . وأكد الدوافع التي تضطره إلى خوض المعركة وتحمله على شهر السلاح :

« فَإِنْ لَمْ يَنْتَهِزُوا عَنْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا » . وطريق الدعوة العتيد في غرس الإيمان وتدعيم الحق هو البيان لا السنان والإرشاد المجرد لا الإكراه المقيت .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

وهناك مسألة تحتاج إلى تمحيص وفقه . وهي علاقة الإسلام بأهل الكتب الأولى من يهود ونصارى . أليست تخضع حضوعاً تاماً للمبادئ التي شرحناها ودعناها بأدلتها ؟ ونحن نجيب ، بلى ! إنها تخضع لها خضوعاً تاماً . وإذا لم تسر هذه المبادئ على اليهود والنصارى فعلى من تسرى إذن ؟؟ وهنا يرد سؤال آخر فما معنى قتالهم حتى يدفعوا الجزية ؟ وذلك ما تشير إليه الآية :

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

والجواب أن الآية المذكورة — في ضوء النصوص السابقة — لا تنطبق إلا على المعتدين العتائين من اليهود والنصارى . الذين نزل فيهم قول الله من قبل

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ » .

وقد أبقنا من هم المعنيون بهذه التوجيهات .

يقول الشيخ محمود شلتوت شارحاً هذه الآية « إنها تأمر باستمرار مقاتلة طائفة هذه صفتها (لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . الخ) قد ارتكبت من قبل مع المسلمين ما كان سبباً للقتال من نقض عهد ، أو انقضاء على الدعوة ووضع للعراقيل في سبيلها ، فهي لا تجعل عدم الإيمان وما بعده سبباً للقتال . ولكنها تذكر هذه الصفات التي صارت إليهم تبييناً للواقع وإغراء بهم بعد ما تحقق العدوان منهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، يحللون لهم بالهوى ويحرمون غير مؤمنين بتحليل الله ولا تحريمه . وليس عندهم ما يردعهم عن نقض عهد ومصادرة حق ولا رجوع عن عدوان وبغى .

هؤلاء هم الذين تأمر الآية باستمرار قتالهم حتى تأمن شرهم ، ونثق بخضوعهم ، وانخلاصهم من الفتنة التي يتقلبون فيها . وجعل القرآن على هذا الخضوع علامة ، هي دفعهم الجزية التي ستفق في المصالح العامة للمسلمين وغير المسلمين . فليست الجزية كما يتصورها بعض الناس بدلاً عن إسلامهم أو دمائهم . وإنما هي علامة كفهم عن القتال ومصادرة الدعوة .

ثم هي مقابل لحماية أنفسهم وأموالهم .

ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج أن أبا عبيدة بعد ما صالح أهل الشام ، وجبى منهم الجزية والخراج ، بلغه أن الروم قد جمعوا له ، واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين ، فكتب إلى أمراء المدن التي تم صلحها أن يردوا عليهم ما جُبِيَ منهم من الجزية والخراج ، وأن يقولوا لهم : إنما رددنا لكم أموالكم لأننا قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا لكم ما أخذنا منكم ! ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم ! !

وفي هذه الآية ما يدل على سبب القتال الذي أشرنا إليه وهو قوله تعالى « وهم صاغرون » وقوله « عن يد » فإنهما يقرران الحال التي يصيرون إليها عند أخذ الجزية منهم ، وهي خضوعهم ، وكونهم بحيث يشملهم سلطان المسلمين ، وتنازلهم أحكامهم . ولا ريب أن هذا يؤذن بسبق تمردهم وتحقيق ما يدفع للمسلمين إلى قتالهم

هذا هو المعنى الذي تفهم عليه الآية ، ويساعد عليه سياقها ، وتتفق به مع غيرها . ولو كان القصد منها أنهم يقاتلون لكفرهم ، وأن الكفر هو السبب الوحيد لقتالهم ، لجعلت غاية القتال إسلامهم ، ولما قبلت منهم الجزية وأقروا على دينهم . . . » .

القتال قبل الإسلام

جاء الإسلام والعرب وغير العرب يشتبكون في حروب لا تحصى ، ولأغراض لا طائل تحتها .

فأما الدولتان الكبيرتان على عهد النبوة فقد كان القتال بينهما سجلا فنت فيه جيوش ضخمة ، وناءت بمغارمه الشعوب المسكينة . وإذا ذهبت تسأل عن سره لم تجد إلا مطامع الملوك الأقدمين ورغبتهم المجنونة في الفتوح والتوسع ، ، تمكيننا لعروشهم وزيادة في أبهتها ومجدها . . .

وأما العرب أنفسهم فقد أكلتهم الغارات المتبادلة . وكان الغزو والسطو مترادفين ، وطالما اشتعلت بينهم الحروب لأسباب تافهة ، حتى صار القتال عادة لهم بل طبعاً فيهم . فإذا لم يجدوا إلا الغارة على الأقارب شنوها :

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

ورعنا لا يرى الواحد منهم بأسا في استيلاق ناقة يصادفها إذا شعر بحاجة إليها ثم يقول غير عابئ :

ولا أسأل الجبس اللئيم بعيره ! وبعران ربي في البلاد كثير . . !
فلما تفجر ينبوع الإسلام في هذه القلوب الصلدة ، وانتعشت بتعاليمه هذه
العصور الجافة ، وأقبل العالم على حضارة تجعل الإيمان صنو الأمان والإسلام
قرين السلام ، وتقطع مطامع النفس ووساوس الشيطان في العدوان على حقوق
أى إنسان ، وتهتف بقول الحق :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً . وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

طلع على الناس فجر جديد في تحديد العلاقات العامة وصياتها من العبث
والمظالم وأصح قتل إنسان ظلماً ، أو مصادرة ماله غصباً جريمة من أقبح
الجرائم وأحقها بسخط الله . . .



وأخذت الدعوة طريقها بين الناس فإذا بقطاع الطريق يمنعون سيرها ويؤذون
أهلها فشرع الله القتال وحصره في حدود الدائرة التى رسمنا خطها آنفا . . .
وتضافرت توجيهات الكتاب والسنة على إحلاص النية فيه لله ،
وتمحيصه لنصرة الحق ، والتسامى به عن أغراض النفس وأغراض الدنيا
عن أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله رجل يريد الجهاد فى سبيل الله
وهو يتغنى عرضاً من الدنيا ؟ فقال : لا أجر له ! فأعاد عليه ثلاثاً ، كل ذلك
يقول : لا أجر له . . .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله (ص) عن الرجل
يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟
قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »
وقد سارت الكتل الكبرى من جيوش الإسلام الأولى ، وهى مضرب المثل

في اقتحامها الغمرات الصعاب ، ابتغاء وجه الله وأملا في رضاه وتطلعا إلى جواره الكريم في ديار النعيم . . .

على أن فطام النفوس كافة عن مآرب الحياة الصغيرة أمر متعسر ، وخاصة بين قوم كانت جاهليتهم لاتدير الحرب إلا للسلب والنهب .

ولكن علاج الدين للحوادث التي وقعت على نذرة ، وظهر أن القتال لم يدر فيها للأغراض التي اعترف بها الإسلام — هذا العلاج يدل على مبلغ تقديس الدين للمبادئ التي يحل القتال من أجلها فقط ، وعلى إضاءة هذه للمبادئ بألوان كاشفة كلما ضلت عنها الأنظار القصيرة .

عن الحارث بن مسلم قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ، فلما بلغنا المغار استحثت فرسي فسبقت أصحابي ، فتلقاني أهل الحى بالرين ، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تحرزوا ، فقالوها : فلامنى أصحابي ! وقالوا : حرمتنا الغنيمة ! !

فلما قدمنا على رسول الله أخبروه بما صنعت ، فدعاني ، فحسن لى ما صنعت ! ثم قال لى : أما إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر ، وقال : أما إنى سأكتب لك بالوصاة بعدى ، ففعل ، وختم عليه ، ودفعه إلى .

تأمل فرحة الرسول بهذا الرجل وإشادته بصنيعه وتنويهه بما اكتسب من ثواب وتوصية الخلفاء والأمراء من بعده أن ينتفعوا بسياسته في الحرب ، لأنها مبنية على التقوى وصدق الإيمان . . .

إن في ذلك دلالة على الرغبة في حقن الدماء وسوق النفع المجرد إلى الناس ابتغاء ما عند الله .

وحدثت قصة أخرى برز فيها التطلع إلى الدنيا ، وغلبت فيها دسائس الطبع الإنساني ، فلم ينشب القتال في الحدود التي رسمها الدين بل تعداها تعديا سيئا ، وقد غضب رسول الله منها أشد الغضب ، ونزل في شأنها قول الله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغْنَمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » .

ونحن نتكلم عن سلامة القانون المنظم لشن الحرب وإقرار السلم ، ونتبع المخالفات التي طرأت عند تطبيقه لتكشف طبيعة الدين في حسمها . وبديهية العقل تشهد بأن المخالفة لقانون لا تطعن في قيمته .

ولا تنكر أن هناك ملوكا مسلمين خلطوا أقبح خلط في حروب شتى أشعلوها باسم الدين ، والدين من سياستهم في القتال والسلام برىء !! فهل تحسب أن الأخطاء التي ارتكبها هؤلاء الملوك ضاق بها من لم يدن بالإسلام فحسب ؟ .

أواقع أن المسلمين شقوا بها قبل غيرهم ، ودفعوا ثمن هذه الأخطاء المحزنة من كرامتهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة .

كان سلاطين الترك يقذفون بجيوشهم حيثما اتفق !

فتحوا مصر المسلمة كما فتحوا اليونان المسيحية ! وفرضوا الجزية على البلدين كليهما ، وخربوها معا

أفكان ذلك نزولا على هدى الإسلام ؟ .

كلا كلا . إنما هي طبيعة الاستبداد والاستعلاء .

وأولئك الملوك المجرمون لا يهمهم من الدين إلا القدر الذى ينكسون به رؤوس الرعايا ويجعل طاعتهم من طاعة الله . . فإذا اطمأنوا إلى ذلك سلكوا طرق الغواية ، واستغلوا السلطة المخولة لهم فى تدعيم دين جديد من الوثنية السياسية الطائشة ، لا يحترم كتاباً ولا سنة .

وهذا الصنف من الملوك لم ينكب به الإسلام وحده ، فى العصور الأولى بل نكبت به الديانات الأخرى ، وأصيبت من شره بأشد مما أصبنا به . وما نستطيع وصف الحروب التى دارت بين الفريقين بأنها حروب دينية نظيفة القصد والمهدف ، فإن جلها — إن لم يكن كلها — التبس بمآرب دنيوية خسيسة وأطماع شخصية تافهة ، وبين حروب النبيين والصديقين الأولين بعد المشرقين . . . !

الارتداد وحرية الرأى

هل لمسلم أن يرتدّ عن دينه ويبقى مصون الدم ؟ كان الارتداد عن الدين جزءاً من حرية العقل والضمير التى أقام الإسلام عليها دعوته ، فمن شرح الله صدره بالإسلام بقى عليه وعاش فيه ، وإلا خرج وكفيت جماعة المسلمين شرّه ! .

وظلّ هذا الحكم قرابة عشرين سنة منذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان شرطاً مقررأ فى معاهدة الحديبية .

روى ثابت عن أنس أن قريشاً صالحوا النبي فاشتروطا : أن من جاءنا منكم لم نردّه عليكم ، ومن جاءكم منا ردّتموه علينا ! فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا ؟ قال : نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ! .

وقد رأى المسلمون غضاضة شديدة في قبول هذا النص من المعاهدة ،
ولكن الرسول أمرهم — يوحى من الله — أن ينزلوا عنده ، فقبلوه مكرهين .
وليس أبلغ من هذا المسلك في الإبانة عن سماحة الإسلام ونزعة إلى
إقرار الحرية العقلية والنفسية بين الناس أجمعين .

غير أن كيد خصوم الإسلام له استغل هذه السماحة في النيل منه ،
فتآمر اليهود فيما بينهم على أن يتظاهروا فريق منهم بالدخول في الإسلام ،
فيثبتوا استعدادهم لترك دينهم القديم ، ويبرءوا من تهمة التعصب له . . . ثم
يرتدوا بعد ذلك عن الإسلام ليشيع بين جماهير الأميين أن اليهود ما هجروا
الدين الجديد إلا لما استبان لهم من بطلانه وتفاخته ! .

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ
آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالَّذِي
تَبِعَ دِينَكُمْ » .

فهل يسكت الإسلام على هذا التلاعب ؟ وهل يداويه بمنع الدخول فيه
أم يحظر الخروج منه ؟ .

وتم شيء آخر يتصل بمعنى الردة وأسلوب التمرّد على الدين وجحد تعاليمه ،
قد يكمر البعض بالله في سريرتهم ، فلا يعلم أحد بكفرهم ، وقد يبدو هذا
الكفر في تصرفات مستخفية ومواقف مائعة ! وتكشف الأحداث المتتابعة
عن نفاق أولئك القوم وخبث طويتهم ، ومع ذلك فإن الإسلام لم يأمر بقتل
هؤلاء ، بل المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم رفضه الإذن بقتلهم .

ولكن الارتداد الحاسم عن الإسلام ومعالجة المسلمين بالانفصال عن
الدين معالجة تنطوي على النيل من قواعده والإنكار لأصوله تشبه في أيامنا هذه

جريمة الخيانة العظمى وتستحق العقاب الذى تواضع الناس على رصده لهذه الجريمة المنكرة .

فإن الإسلام كان يواجه حرباً تستهدف اجتثاث جذوره ، حرباً تريد ردّ جمهور المسلمين عن الدين الذى ارتضوه .

« ولا يزالون يُقاتِلونكم حتّى يرُدُّوكم عن دينكم إن استطاعوا .
وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتّى تتبّع ملّتهم » .

وكان المرتد المعالن يترك هذه الجبهة لينحاز بسيفه إلى الجبهة المناوئة .
وربما كان أشد خطراً على الدين ممن بقوا على شركهم فلم يدخلوا الإسلام
لينسلخوا عنه بعد قليل !

فكيف يُطلب من الإسلام أن يمنح هؤلاء المرتدين حق الحياة
ليشاركوا فى قتله ؟ ؟

إن المسألة هنا خرجت كل الخروج عن نطاق الحرية العقلية المنشودة ،
ودخلت فى تحديد الدائرة التى تدفع بها الجماعة عن مصلحتها ضد الحرية
الشخصية الطائشة ! . ويوم تصل الأمم فى عصرنا هذا إلى حكم يبيع
لامرئ أن يبيع وطنه ، أو لفرد أن يعرض مستقبل أمة للخطر ،
فإننا سنبيع باسم الإسلام أن يرتد عن الإسلام من يشاء . . . !

والصحيح أن المرتد أحق الناس بوصف الكفر وأجدرهم بالعقاب
عليه ، قال الكفر الصراح هو جحد الحق بعد معرفته ، أى أنه ينشأ عن

فساد في النفس لا عن قصور في العقل ، وهنا مناط المؤاخظة ! وهل أحق بها من قوم .

« يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ؟
ويوم يتبين الهدى لرجل ثم تنزعه عنه بواغث الهوى ، ثم تسخره في حربه فلا جرم أن يقطع عنقه ... !

أما الشبه العارضة والوساوس التي يلتبس لها صاحبها علاجاً من الفكر السديد والدلائل القوية فليست رِدَّةً . ودون ثبوت الردة على المهمم بها مراحل طوال ، ولا يلتفت فيها إلى تسرع العامة وأهواء الجهال ...

الرقائق

إذا ذكر الرقيق ارتسمت أمام العين صور شائبة لأسواق النخاسة التي أقامها قناصو البشر ، وتاجروا فيها بأناس أطهار أبرياء ، نفوسهم لاشك أزكى وأنتقى من نفوس الخطاة الذين اصطادوهم ، ومن نفوس المترفين الذين اشتروهم ليسودوهم ويستغلوهم !!

وإن المرء ليشمئز من تصور إنسان كريم على الله ، يجب أن تتوفر له أسباب التكريم بين الناس ، ثم إذا به يتحول فجأة إلى سلعة تتداولها الأيدي كما تتداول كلاب الحراسة أو أبقار الحرث !!

ولماذا ؟ لغير شيء ، إلا لأن الدنيا سقطت في أيدي لا تعدل ولا ترق ، وهيمن على تصرفها نفر من المستبدين ملأوها بالتقاليد المنحطة ...

إن الرقيق الذي قامت على كواهل حضارة الرومان والإغريق والفرس ، وظل يزحم الأسواق في الشرق والغرب ، وظل ينتقل من أوربا إلى أمريكا حتى مطلع القرن السابق ، هذا الرقيق لا يعرفه دين ! ولا يقره عيسى ولا محمد ! وإن عمرت به قصور السلاطين الذين حكموا باسم محمد ! وقصور البابوات والأباطرة الذين حكموا باسم عيسى ! .

فإن الكثرة الساحقة من هؤلاء وأولئك ملوك مستبدون لا يربطهم بأديانهم نسب عريق ، والمجتمعات التي عاشت بهم ، وخاضوا فيها ، أبعد ما تكون عن هدى الأديان ورضا الرحمن !

ومن المدهش أن فريقاً من الشباب الذي احتكرت عقله ثقافة الغرب ، يريد أن يحمل الإسلام — وحده — تبعات الاسترقاق الذي اجتاح وباؤه الدنيا كلها إلى عهد قريب !

ويريد أن ينسب الفضل في تحرير العبيد إلى بعض الرجال النابهين
في أوروبا وأمريكا ...

ونحن لا ننكر أن المسلمين نزلوا بدينهم إلى الحضيض ، ومرغوا سمعته
في التراب

ومن دعا الناس إلى ذمه ذمّوه بالحق ، وبالباطل !!
ولكن من الإنصاف ألا ننسب الجريمة العامة إلى بعض الظالمين دون
بعض ، فإن المسلمين وغير المسلمين سواء في هذه البلية ، وأسواق النخاسة
لم يعرفها الشرق ويجهلها الغرب ! ولقد دار القتال الأهلي في الولايات المتحدة
بين الشمال والجنوب لإنهاء عهد الرقيق .

فهل كان الإسلام مسئولاً عن رقيق أمريكا ؟

وقد يكون لحضارة أوروبا فضل القضاء على الرق الفردي ، غير أنها لم
تفعل ذلك تكريماً للإنسان ، واحتراماً لحقوقه وتقديساً لحياته .

كلا ، فقد استبدلت الرق الجماعي بالرق الفردي وتحولت من استذلال
فرد لفرد إلى استذلال جماعة لجماعة . ولعل ذلك لا يعود إلى ترقٍ في طبيعة
الإنسان بل إلى تحوير في أساليب الطغيان .

جاء الإسلام والرق من دعائم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العالم كله ،
وأسباب الاسترقاق تتبع منازع الشهوات وعريضة القوى المتحكمة ... فاتجه
هذا الدين إلى استنقاذ أولئك البائسين من السجون التي يدورون داخل
قضبانها أبداً .

وكان من أوائل الوحي النازل بمكة في صدر الإسلام قوله تعالى :

« فَلَا أَفْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ؟ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . »

وليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله نص يأمر بالاسترقاق . ولكن هناك مئات النصوص تدعو إلى العتق .

ومن قواعد الفقهاء التي يرجعون إليها في شتى الأحكام أن الشرع يتشوف إلى الحرية !

ولما كانت مسألة الأرقاء شديدة التعقيد وقتئذ ، فقد تدرج الإسلام في حلها كما تدرج في تحريم الخمر .

وجملة التعاليم التي بين أيدينا من الكتاب والسنة ؛ تشهد بأن الإسلام عند ظهوره وجد منابع الرق كثيرة ، ومصارفه قليلة أو معدومة ، فكثير المصارف ، ونظمها ووسعها ، وردم المنابع ، أو وضع لها من الوصايا ما يجعلها تجف من تلقاء نفسها . .

وقد تسأل : لماذا لم يتعجل الغاية المنشودة ؟ وما الذي يضطره إلى التدرج في علاج قضية لها خطرها في حاضر الحياة ومستقبلها ؟

ونحن نسرد الملاحظات التي اكتتفت قصة الرقيق لنعرف مدى ما بذله الإسلام في صيانة النفس البشرية ، وتحريرها من إساءة الذلة والمهانة ، موقنين بأن الأمور لو سارت على ما يشتهي هذا الدين لبطل الرق من قرون . .

فإذا حدث أن قضية الرق تعقدت فرد تعقدها إلى الاستبداد الأعشى الذي جار على حقوق الأحرار أنفسهم فاغتالها .

والحكومات التي تبنى وجودها على استلاب الآخرين لا ينتظر أن تؤدي ما عليها من حقوق ، ومن العبث أن تنتظر من مستعبدى الأحرار أن يحرروا العبيد !

أبطل الإسلام ما كان متعارفاً من أسباب الاسترقاق ، ورفض ما كان مشروعا لدى الرومان من أن اقرار بعض الجرائم أو الإعسار في سداد دين يهوى بالإنسان من مرتبة الحرية ويمسحه عبداً مهيناً .

ومضى الإسلام في طريقه يحرر النفوس من آصار الشهوات وينقذ المستضعفين من قيود الذلة ، حتى إن عظماء العرب اعتبروا هذا المسلك الإسلامي عائناً يحول بينهم وبين الدين الجديد ، وهاجت في دماهم حمية الجاهلية فساءوا الرسول مستنكرين كيف يسوى بينهم وبين هؤلاء العبيد ، ومشى إليه أبو جهل يكلمه : أجبث ترفع ابن سمية الذليل إلى منازل السادة ؟ قال نعم : « ونمكن لهم في الأرض وجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » .

ثم تكالبت العرب على المسلمين تنغي فقتلهم ، وأعلنت على النبي وأصحابه حرباً شعواء ، وكانت الأيام بين الفريقين دولا .

والقتل والأسر طبيعة محتومة في كل قتال ، والعرف السائد يومئذ أن الأسرى لا حرمة لهم ولا حق ، وأنهم بين أمرين أحلاهما مر ، القتل أو الاسترقاق . .

فماذا فعل المسلمون بما لديهم من أسرى ؟
إن التعاليم التي بين أيديهم توصي بهم حيراً ، إنها نصف للؤمنين بأنهم :
« يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا تُطْعَمُكُمْ لُوجِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » .

والرسول عندما يحض على مكارم الأخلاق يقول : « عودوا المريض وأطعموا الجائع وفكوا العاني » . أي أطلقوا سراح الأسير .

إنه لا حرج على المسلمين من ترك هؤلاء بعدما سقطوا في أيديهم ، غير

أنه لا ينبغي لأصحاب الدعوة المضطهدة أن يجهلوا حقيقة وضعهم ، فهم لم يحاربوا إلا رداً للعداوان ، ومنعاً للفتنة ، وإقراراً لحرية الرأي .

وهؤلاء الأسرى الذين فقدوا اليوم حريتهم إنما جزاهم القدر بسوء صنيعهم لقد سقطوا في أيدي المسلمين كما سقط أشراف فرنسا في يد ثوارها ، وكما سقط قيصرية روسيا في يد شعبها ، ومع أن أحداً من أولئك الكبراء لم ينج من المصير القاتم ، ومع أن سادة العرب الذين سقطوا في أيدي المسلمين الأولين ، كانوا يستحقون النهاية نفسها ، إلا أننا نجد القرآن ينصح أولئك الأسرى في أول معركة بين المسلمين والمشركين :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَغْلِمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

ومن هذا الخطاب ندرك الروح التي يصدر الإسلام عنها في معاملته لمن حشدوا الجموع لقتله ، ولمن ظلوا بصعة عشر عاما يوقعون المظالم الفاجعة بجمهور المسلمين يريدون إقصاءهم ، أو إضلالهم . . .

فهل من حسن السياسة أن يطلق سراح الأسرى فوراً ؟
ذلك أمر يتعلق بمصلحة الدولة العامة . وعلى الحكومة أن تواجه الظروف المتغيرة بمسالك مناسبة لها . . .

في بدر قبل المسلمون العداء ، وفي الفتح قال الرسول لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ! وفي غزوة بني المصطلق رأى النبي أن يتزوج أسيرة من هذا الحى المغلوب ليرفع مكاتته ، وتم له ما أراد ، وتخرج الناس من استرقاق الأصهار الجدد فأطلقوهم !

وكان من الممكن محريم الاسترقاق أصلاً ، ولكن هذا التصرف من المسلمين يعتبر عبثاً ، لأن أعداءهم سيرفضون التقيد بهذا التحريم ثم ينشأ عن ذلك أن أسرى المسلمين لديهم يُستعبدون ، وأسرى المشركين لدينا يُحرَّرون ! وفي أى حرب يقع هذا التناقض ؟

في حرب نحن فيها المدافعون عن حرية العقل والضمير ، الكابحون لجراح المعتدين والمتكبرين ، وغيرنا فيها يطبق سياسة شاعر الجاهلية القائل
بغاة ظالمين ، وما ظلمنا ولكما سنبداً ظالمين !
لذلك اضطر الإسلام إلى السير على قاعدة المعاملة بالمثل حتى لا يضار من تعلقه المطلق بالحرية الكاملة

وفي الوقت الذي أذن فيه للحكومة أن تقابل بالاسترقاق من يستعبدون رعيتهما ، جعل النص في معاملة الأسرى محدداً لمثله العليا فحسب
« حَتَّى إِذَا أَتَخَسَّيْتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ، فَإِمَامَنَا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا »

إن هذا الأسير الكافر ، في حرب أوضحنا بواعثها ، كان رجلاً ظالماً ، أو كان أداة لتنفيذ ظلم . استغل الحرية المتاحة له في الطغيان على حقوق الآخرين . فمن العدالة أن يسلب قسطاً من حرية لم يحسن الاتفاف بها كذلك من العدالة إذا عوقب على جرمه السابق أن يرفع عنه العقاب نور ظهور أمانة على توبته واستقامته ، وأن تُهيأ فرص كثيرة لإعادة حرّيته إليه ، ولو لم يقض المدة الكافية لِتُطَهَّرَ من آثامه الأولى ! فلعل مايتكشف لعينيه من فضائل القوم الذين حاربهم قبلاً يرد إليه صوابه العازب ، ويميده إنساناً كاملاً ، لا يجور ولا يجار عليه . . . وهذا ما صنعه الإسلام ، والقواعد التي شرعها في معاملة الرقيق تجمع بين العدالة والرحمة ، وفي الوقت الذي يفك

فيه عقدتهم ويستعد لإطلاق سراحهم — تمشيًا مع مثله الفاضلة — يقدر أن ذلك قد يقتضى فترة ما ، فهو يوصى بجعل هذه الفترة اللازمة ، عهداً من البرّ والمواساة والإحسان يحتم بالحرية التى ينشدها الشرع لكل إنسان .
وفى سبيل هذه الحرية جعل ثمن الزكاة المفروضة يرصد سنوياً لتحرير العبيد ، كما جعل العتق كفارة فى عقوبات القتل الخطأ ، والظهار ، والأيمان ، وإفطار رمضان ، ثم دعا دعوة عامة تحس فيها عواطف المناشدة والرجاء كما يطلق سراح أولئك الماكيد ابتغاء وجه الله .

وقبل أن يستمتع هؤلاء القوم بحرياتهم المفقودة ، سنت لهم قوانين لا تعرف فى أرقى معسكرات الأسرى ، لو سمع بها أسرى الحروب العامة فى « أوربا » لسال لها لعابهم وحسدوا القداى عليها :

١ — كفل لهم غذاء وكساء كغذاء وكساء أوليائهم .

روى أبو داود عن المعرور بن سويد ، قال : دخلنا على أبى ذر بالربذة ، فإذا عليه برد ، وعلى غلامه مثله ، فقلنا : يا أبا ذر ، لو أخذت برد غلامك إلى ردك فكانت حلة وكسوته ثوباً غيره ؟ .

قال سمعت رسول الله يقول : هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليكسسه مما يكتسى ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه .

٢ — حفظت كرامتهم فلا يجوز خدشها بكلمة نابية .

روى أبو هريرة قال أبو القاسم نبي التوبة : « من قذف مملوكه بريثاً مما قال أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال » .

وروى عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ضرب مملوكه ظلماً قيد منه يوم القيامة » .

وروى أبو داود أن ابن عمر أعتق مملوكا له ، ثم أخذ من الأرض عوداً
أوشيثاً فقال : مالى فيه من الأجر ما يساوى هذا ، سمعت رسول الله يقول :
« من لطم مملوكا له ، أو ضربه ، فكفارته عتقه » .

وروى أحمد عن أم سلمة قالت : كان رسول الله فى بيتى ، وكان بيده
سواك فدعا وصيفة لها — فلم ترُدَّ — حتى استبان الغضب فى وجهه !
وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجدت الوصيفة وهى تلعب بهيمة ،
فقلت : أراك تلعبين بهذه البهيمة ورسول الله يدعوك ؟ فقلت : لا ،
والذى بعثك بالحق ما سمعتك . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك » . . .

٣ — يتقدم العبد على الحرِّ فيما يفضلُه فيه من شئون الدين والدنيا .
وقد صحت إمامته فى الصلاة ، وكان للسيدة عائشة أم المؤمنين عبد يؤمها
فى الصلاة .

بل لقد أمر المسلمون بالسمع والطاعة إذا ملك أمورهم عبد — ما دام
أكفاً من غيره —

وعن ابن عباس عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم قال : « عبد أطاع الله
وأطاع مواله ، أدخله الله الجنة قبل مواله بسبعين خريفاً . فيقول السيد :
رب . هذا كان عبدى فى الدنيا . قال : جازيته بعمله ، وجازيتك
بملك . . . »

وقد تسأل : لماذا لا يوهب الأسير الحرية إذا أسلم ؟ .

والجواب أنها حقه فى الحال ، أما إذا تأخر إسلامه بعد أن يضرب
عليه الرق . فمن حقه كذلك أن ينطلق كيف شاء ، لكن الإسلام

خشى الأعيب المناققين . يُظهر أحدهم الإيمان حتى إذا نجا بنفسه عاد إلى قومه يحمل معهم السلاح ليسىء إلى من أحسنوا إليه .

أما إذا كان الرجل صادقاً في إسلامه فلن تضيره مهلة يسترد بعدها حرّيته في منفذ من المنافذ السابقة . وقد أمر الولي أن يتحرى حال صاحبه فإن وجده مخلصاً سعى في فكّكه :

« وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » .

ونزعة الإسلام إلى التحرير العاجل في هذه الحالة تلمسها في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه ، عضواً منه من النار ، حتى فرجه بفرجه » .

وعن أبي نعيم السلي قال : حاصرت مع رسول الله الطائف فسمعتة يقول : « أيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلماً فإن الله عز وجل جاعل وقاء كل عظم من عظامه ، عظماً من عظام محرّره . وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله عز وجل جاعل وقاء كل عظم من عظامها ، عظماً من عظام محرّرتها من النار » .

وقد اعتبر النبي أن العتق في ذروة أعمال الخير ، وقدمه على مبرات أخرى جليلة الشأن .

روى أحمد عن البراء بن عازب جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً يدخلني الجنة ! قال : إن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة ... أعتق النسمة وفكّ الرقبة ! قال الأعرابي : أليستا واحدة ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تفرد بعتقها ، وفكّ الرقبة أن تعين في ثمنها ، والمنحة الوكوف ، والنقيء على ذى الرحم القاطع ...

فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه
عن المنكر ...

فإن لم تطق ذلك فكفّ لسانك إلا عن خير »

وليست المصارف التي افتتحها الإسلام لتصفية الرق هينة الخطر ، ولو
تركت تؤدي رسالتها بعدما حوربت مصادر الاسترقاق التي شاعت في الجاهلية
الأولى للعرب والفرس والروم لما بقي رق !

ومع أن الرق يشبه فترة انتقال في حياة رجل خرج من دياره بطرا
ليحارب الحق ويقضي عليه ، ويريد الدين له أن يتحول إلى امرئ مسلم
مَوْطَأً الأكناف لرسالات الله ، مع ذلك فقد تعهد الإسلام هذه الفترة بفنون
من الرعاية والرحمة جعلت الأحرار يرغبون فيها ؟ وما الذي يزعج منها ؟
طعام مبذول ، وهيئة حسنة ، وجانب مرعى .

إن ألوف الأحرار لا يتوفر لهم ذلك !

ومن هنا قال أبو هريرة : « قال رسول الله للعبد المملوك المصلح أجران .
والذي نفس أبي هريرة بيده ، لولا الجهاد في سبيل الله ، والحج ، وبر أمي
لأحببت أن أموت وأنا مملوك » .

وروى أحمد عن أبي بكر الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يدخل
الجنة بخيل ولا خبث ، ولا سيء للئكة . وأول من يقرع باب الجنة المملوكون
إذا أحسنوا فيما بينهم وبين الله عز وجل ، وفيما بينهم وبين مواليتهم » .

ونحن مكرهون على الاعتراف مرة أخرى بأن تعاليم الإسلام سارت في
اتجاه وأعمال المسلمين سارت في اتجاه آخر . ووزر ذلك يقع على رأس الاستبداد
السياسي وما ينتشر في ظلاله الداكنة من جهالة وغباوة وفوضى ...

وإليك هذا المثل الصارخ من التناقض بين وصايا الرسول ومساالك
الأتباع ..!!

روى كعب بن مالك قال : عهدى بنبيكم قبل وفاته بخمس ليالٍ فسمعتُه
يقول « . . . ألا وإن الأمم من قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ،
وإني أنهاكم عن ذلك ! ! اللهم هل بلغت ؟ — ثلاث مرات — ثم قال :
اللهم اشهد — ثلاث مرات — وأغنى عليه هنية . . . ثم قال : الله الله فيما
ملكتم أيماكم ، أشبعوا بطونهم ، واكسوا ظهورهم ، وألينوا القول لهم .
فأما نهى الرسول عن اتخاذ القبور مساجد ، فحسبك أن ترى يبصر كحيث
شئت من مدائن المسلمين وقراهم لترى أكثر من تسعة أعشار المساجد قد بنى
على القبور ، وأصبحت المساجد أضرحة تزار ، ، وتساق إلى مقبوريتها النذور !!
قال شوقي ساخراً من هذا العبث :

لا يُعجبك ما ترى من قبة	ضربوا على موتاهم ، وطراف
هجموا على الحق المبين بباطل	وعلى سبيل القصد بالإسراف
يننون دور اللهو كيف بدا لهم	غرفات مثر ، أو سقيفة عاف
ويُزَوِّرون قبورهم ، كقصورهم	والأرض تضحك ، والرفات السافى !!

وأما أمر الرسول بتقوى الله في الرقيق فتحدثك عنه طوائف الخصيان
وأضرابهم من ضحايا العتو والسفاهة الذين تطاير الحديث عن وظائفهم في
القصور خلال القرون الوسطى . . . بل إلى هذه الأيام . فعند ما كنت في
المدينة شاهدت فريقاً من هؤلاء « الأغوات » يخدمون في مسجد النبي صلى
الله عليه وسلم وأحسست لمرآهم بغصة ، وفكرت في رجولتهم المحطمة ، ثم
نظرت إلى الروضة التي تضم جثمان النبوة ، وتذكرت ما رواه علي بن

أبي طالب حين قال : « كان آخر كلام النبي الصلاة الصلاة . . . اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم » .

إن تقوى الله في الرقيق كانت حديث خرافة !! وما كان أكثر عبث المسلمين بما ورثوه من هذا الدين !!

الإماء

لم يكن هناك داع للكلام عن الإماء خاصة ، فإن سبيلهن في الحقوق المقررة للآسان الكامل سبيل الذكور . بيد أننا فنجد شبهات تعرض لأحوالهن خاصة ونحب أن ننصف الدين منها .

من البدهيات أن النسوة اللاتي ملأن قصور الحريم ، في عصور الأتراك ومن قبلهم ، كن حرائر جارت عليهن الليالي قَصِرْنَ في الغرفات الفخمة ، ليكنَّ متعة فحل مترف من ملوك العصور الخالية ، وقد أحصى في قصر واحد بضعة آلاف جارية ، وقفت جميعاً على هذه الشهوات الشاذة .

وقد بلغنى أن الفتيات الحسان من اللاجئات الفلسطينيات يُبَعْنَ بأثمان مغرية لقصور ما يزال أمراؤها يستبيحون الاتجار في الرقيق ! ويقبل الآباء والأمهات هذه الصفقات الآثمة تحت وطأة الحاجة إلى القوت ، وهم يحسبون أن بناتهم سيجدون على أية حال مستقبلاً أفضل من حاضرهن الحزين .

أعتقد أن أحداً لن يسفه نفسه فيطلب من الدين حساباً عن هذا التصرف !

ولندع حديث الحرائر المغتصابات إلى حديث الإماء . . .

قلنا : إن موقف الإسلام من استرقاق الرجل كوقفه من استرقاق المرأة وإن سعيه لتحرير هذا كسعيه لتحرير تلك ، وقد كانت المرأة عنصراً هاماً

في توجيه الحياة العامة قديماً . وفي إهاجة المشاعر ضد الإسلام عند ما أعلنت
الجاهلية حربها الشاملة ضده .

والسورة التي نزلت تُقرِّع أبا لُهب على تهجمه لم تنس امرأته معه !
وفي غزوة أُحُد كان نساء قريش ينشدن خلف الجيش الزاحف على المدينة :
إِنْ تَقْبِلُوا نُعَاقُ ! ونُفْرشُ النُّسَارِقُ !
أَوْ تَدْرُوا نُفَارِقُ ! فِرَاقٌ غَيْرُ وَامِقٍ !
وقد رأينا في حرب فلسطين الأخيرة كيف كانت الفتيات اليهوديات
يقاتلن بياس شديد ويفتن الرجال في خوض الغمرات ، وركوب الأخطار .
فتذك هؤلاء ليس مسلكا حرياً رشيداً !
والذي أريد بيانه الآن هو مدى ما قدمه الإسلام لهؤلاء الأسيرات
من رعاية . . .

ولنسأل أنفسنا : ما هي الرعاية التي تجب للمرأة خاصة ؟ وما الذي نحب
أن يسدى إليها أيام الحرب وأيام السلام ؟
وقبل أن نجيب على هذا التساؤل لابد من ذكر حقائق هامة .

إن مركز المرأة الحساس يجعل مشاعرنا مرهفة تجاه المعاملة التي سوف
تلقاها . ويجب أن نصارح هنا بأن أقطار الغرب كلها أقامت حضارتها الحديثة
على ابتذال عرض المرأة في شتى الأحوال . وأوروبا وأمريكا آخر من يتكلم
عن قيمة الشرف بعدما جعلتا البغاء شريعة مقررة أيام السلام ، وفريضة
مرفهة أيام القتال . . وقد رأينا بأعيننا فرقا هائلة من المجندات الجيالات
تستخدمهن الدول المحاربة لأغراض معروفة . كما أن الدول المهزومة والمغلوبة
على أمرها كانت تقدم نسوتها للجيش المقاتلة كما تقدم الطعام والشراب ،
لا يحزنها إلا أنها تقدم ذلك من غير عوض !!

. والضمير الغربي لا يأبه لهذه الفضائح فإن المسألة الجنسية في حسابه تتصل
بغرائز البدن لا بفضائل النفس ، ومن ثم فهو يبت صلتها بالأخلاق ، ويدعها
تتزّى كيف تشاء . .

أما الإسلام فيوجب على الرجل مسالماً أو مَخاصماً أن يتصون ويستعف ،
وَألا يتصل بامرأة أبداً إلا عن الطريق التي أحل الله . وكل اتصال وراءه فهو
محظور سواء كان بمسلة أو مسيحية ، أو يهودية ، أو وثنية . . . في حرب
أو في سلم . . .

فإذا حدث — في حدود الدائرة التي رسمناها آنفاً — أن استرقت امرأة
فلن تكون مجنونة يغشاها ألف جندي كما يحدث في أوروبا الآن . بل ستكون
في عصمة رجل وحده ، فإن اتصل بها اتصالاً جنسياً وحملت منه أصبح الولد
ابنه من صلبه ، يرث منه وينسب إليه ، لا لقيطاً زنياً — كما اشترعت أوروبا —
وأصبحت الأمة أم ولد في مصاف الزوجة .

ذلك وقد حث النبي على عتق المرأة الأسيرة وتزويجها بعد تعليمها
وتهذيبها ورفع مستواها قال : « . . ورجل كانت عنده جارية وضيئة فأدبها
فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها . . ثم تزوجها يتنحى بذلك وجه الله ، فذلك يؤتى
أجره مرتين » .

ويهمنا أن نؤكد حقيقة قد يغفل عنها الكثيرون . وهي أن ديناً ما لم
يسقط قيمة الفتاة باعتبارها إنساناً محترماً في ذاته ، محترماً في نسله ، فإسماعيل
وهو من أنبياء الله العظام كانت أمه أمة ، والمأمون وهو من الخلفاء الضخام
كانت أمه أمة .

أما ما وقر في الأذهان من أن الرقيق كانوا جنساً بين الحيوان والإنسان
فأمر لا يعود إلى تقاليد دين بل إلى لوثرات المستبدين .

ذلك . . وقد أباح الإسلام أن يتصل الرجل بأكثر من واحدة عن طريق عقد صحيح

والشغب على هذه الإباحة بفرض صور يخلقها الجدل المحض أمر ممكن .
كأن يقال مثلاً : إن الإسلام أعطى الرجل الفرد حق الاتصال بمائة أمة .
هذا كلام يفترضه الإسراف في الجدل وإلا فلو طبقت تعاليم الدين التي
سردناها ، والتي تشدد الضغط على مصادر الاسترقاق حتى تحتبس ثم ترفع
الأرقاء على عجل إلى مراتب الأحرار ، فمن أين يتاح لرجل ما هذا العدد ؟

والآن نريد أن نسأل الدول التي اشتركت في الحرب الأخيرة ، ولا تزال
أحداثها ماثلة أمام أبصارنا : ماذا فعل الألمان بأسرى اليهود لديهم ؟
لقد اختفى خمسة ملايين يهودي ويهودية فجأة من وسط أوروبا . أيدوا
عن بكرة أبيهم ، واخترعت لإبادتهم أفران خاصة ..
وأسرى الألمان في روسيا ؟ ماذا صنع بهم ؟
فנית جحافلهم فلم يثر لها على رفات
ونحب أن نسأل البيض عن الحرب التي أعلنوها ضد الأجناس الملونة ،
وعن مذابح الزوج في الولايات المتحدة ، والهنود في جنوب أفريقيا . وعن
القوانين التي سنّها الإنجليز والأمريكان تحرم تجاوز البيض والسود في مسكن ،
بل التي تحرم حتى ظهورهم في صورة واحدة
أهي عاطفة الحب المكين للبشر أجمعين هي التي أوجت بهذه الحروب
الفاجرة ؟ والقوانين السفهية ؟

قد يحلو لمعرض جهول أن يتحدث عن موقف الإسلام من الرقيق ، .

يحسب أنه سيمس ناحية موجعة من هذا الدين ، فما قد بدت لك الصحيفة النقية تتحدث عن نفسها . . .

لقد قلنا : إن الإسلام يريد ليؤسس عقائده ومبادئه — أن يستمتع الناس جميعاً بأنصبة متساوية من الحريات المؤمنة والحقوق الموطدة ، وعلينا أنه يحرم — إلى حين — من هذه الأنصبة المتساوية من يعتدون على حريات الآخرين ، ويجعل هذا الحرمان عقوبة تنتهى بالعفو .

ولسنا نهدد الإنجليز وشركاءهم بأن الإسلام سيدفع بنيه إلى استرقاقهم يوم يكسر القيود التى كبلوه بها والسجون التى قذفوه وراءها . .

كلا . فالإسلام لم يجعل استعباد الناس ركناً سادساً مع أركانه الخمس . ولكنه يريد أن يطهر الدنيا من أدران الاستبداد ، وأن يدع تيارات الفكر الحر تقتحم كل مجال وتنساب فى كل ميدان . . .

أجل نحن نريد ذلك . . . ونود من غيرنا أن يوافقنا ، فهذه خطة لاغبين فيها ولا إجحاف .

أشعة الحرزيتة

طبيعة الخير والوضوح والتكشف ، وطبيعة الشر الغموض والإيهام
الرجل الطيب لا يسوءه أن تظهر أعماله أو تستعان أحواله . وهو يستطيع
أن يقول للناس دائماً « هَاوُثُمْ اقْرَأُوا كِتَابِيَّةٌ » !
فليس فيه ما يخشى مغبته ويحاذر عقوبته .

والرجل الخبيث يحرص على أن يطوى جوانب حياته فلا تقع الأعين
منه إلا على ظاهر خادع وطلاء كاذب . أما ما وراء ذلك من إثم فقد ضرب
عليه ليل طويل

كذلك الحكم الصالح والحكم الفاسد ، لا يرى الحاكم الراشد حرجاً في
أن تنطلق الألسنة من عقالمها تصف ما ترى ، وتبحث عما غاب . فلن ترى
في الشهادة والغيب إلا ما يزهو به ويهش له من عفاف وعدالة واستقامة . . .
أما الحاكم المجرم فيريد جواً يسوده الصمت الرهيب ، لأنه يدرى أن
الأفواه لو نطقت فستفضح خبائه وتكشف سره . وهنا الطامة الكبرى .

ولذلك كان من خصائص الاستبداد السياسى فى كل زمان ومكان كرهه
الشديد لحرية النقد والتوجيه . وكان من خصائص الإسلام التى امتاز بها
— لتقويض أركان الاستبداد — أن أوجب على كل فرد أن ينقد الخطأ وأن
يوجه إلى الخير . . .

كان الثوار على المظالم فى كل بلد وقع فريسة الحكام المستبدين يطلبون
حرية القول ، وكان هؤلاء الحكام يخشون من هذه الحرية على كيانهم فهم
يحظرونها ، ولا يجوز أن يذاع إلا ما كان مدحاً لهم أو زلفى إليهم .
ثم تخرس الألسنة بعد هذا . . . !

لكن الإسلام جعل هذا النقد والتوجيه فريضة تتبع الإيمان لا مباحاً يتبع المشيئة وبين الله — تبارك وتعالى — أن تقرير المعروف وأمر كل إنسان به ، وتخير المنكر وزجر كل إنسان عنه ، وتتبع الأعمال بالتصويب والتخطئة أيما كان مقتربها . . هو سر تفضيل هذه الأمة المسلمة على غيرها .

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

وبين كذلك أن هذه الأمة لا تنال من الله نصراً ، ولا تستحق في الأرض تمكيناً ، إلا إذا احتفظت بهذه الخصائص الجليلة ، وأنبئت عليها — في الداخل — العلاقات بين الحكومة والشعب ، وأنبئت عليها — في الخارج — العلاقات بين الدولة المسلمة وسائر دول العالم .

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

والحق أن أمتنا فرطت في هذه الشعائر التي ناطها الله بها تفريطاً شنيعاً ، فلا جرم أسأها تحرم من رعاية الله ، وتناها هذه اللطامات القاسيات من يد القدر العدل . !

ذلك أن صوت الخير لم يمتنع عندنا فحسب ! بل كشف الشر عن وجهه الكالح ، وكشر عن أنيابه الزرق صارخاً مهدداً .

كتب الأستاذ خالد محمد يسأل: ماذا كانت هيئاتنا النيابية تصنع لو أنها تمثل الشعب وآلام الشعب ؟ كان سيحدث عند ما نزل « شاهنشاه إيران » عن أطيانه جميعها للشعب هناك أن تسبق الحوادث التي قد تستجيش أحقاد الشعب

هنا ، فتطلب إلى آلهة الإقطاع في مصر أن يتشبهوا بالرجال ، ويردوا للأمة أرضها . . . !

كان سيحدث عند ما أذاعت محطات العالم ، وكتبت صحفه : « أن مكاسب كازينو إيفيان للقمار قد زادت سنة ١٩٥٠ ٧٠٪ عن الأعوام السالفة بفضل الباشوات المصريين الذين يذهبون إلى بحيرة إيفيان باحثين عن الأشياء الثيرة . . . أن يصرخ (البرلمان) في وجه الحكومة : من هؤلاء الباشوات ؟ وكم من ملايين الجنيهات أخذوا معهم ليشتروا بها اللهو والعبث ؟ . أفنعجز هنا أن نحاسب أفراداً ! وهناك في « بريطانيا » يقف بعض أعضاء مجلس العموم يحذرون الحكومة من أن تتحمل نفقات رحلة ملكي إنجلترا إلى جنوب أفريقيا ، ولم يسكتوا حتى وافاهم وعد من الملك بأن نفقات الرحلة من جيبه الخاص . !

كان سيحدث عند ما تقدمت الحكومة طالبة إقرار مشروع قانون يفصل بين الشعب والقصر ، قانون يجعل القصر الملكي « منطقة حرام » ويحرم على الأمة أن تتحدث عن ملكها بغير تصريح من وزير . . . أن ينتفض ويقول : كيف يتحكم الوزير وهو موظف في شئون القصر وأخباره ، فيجعل بعضها حلالاً ، وبعضها الآخر حراماً ؟ .

كان سيحدث أن يصرخ برلمان الشعب : نحن مصر ! ومصر ترفض أن تحاصر أخبار ملكها ! مصر ترفض أي سور يقام بينها وبين عرشها . ! مصر ترفض أن تلتقط أخبار الملك من أفواه الإذاعات الأجنبية المفوضة والصحف المحرقة . . .

إن الله سبحانه لم يجعل الحديث عنه حراماً ! وأن أخبار الملك وتصرفاته السامية ليس فيها ما ينجل أو يريب . . . حتى نضعها تحت رقابة وزير . . . !

وعندئذ كان هذا القانون سيلقى المصير نفسه الذى لقيه قانون الاشتباه السياسى^(١)
وقد تؤيد الكاتب فى شكواه التى يصيح بها ، ونعلم أن الحال فى جنبات
الشرق الإسلامى أشد شناعة منها فى مصر ، والعلة الدفينة لهذه الفوضى السائدة
أن المسلمين فقدوا روح الدين بل فقدوا نصوص الدين فى أنفسهم وجماعتهم !
وإذا كان الإنكليز فى بلادهم أقدر على قول الحق وإنزال الملوك
والصعاليك على حكمه ! على حين يهيم الجبن والنفاق عند غيرهم ...
أفترى القدر حاباهم وآذانا يوم أعطاهم وحرمتنا ؟ ! كلا

لقد كان للمسلمين منذ قرون ملك عريض قامت دعائمه على الحق ،
ولحظته العناية العليا إذ كان أهلاً لها ! طعن الاستبداد وأعلن الشورى ،
ومحا التعصب ونشر السباحة .

وقد أعلم الله نبيه بما ستنال أمته من فتح وسعة بعدما أصاب الدعوة
أول أمرها من مطاردة وضيق . فقال النبىؐ موصياً أمته بما يحفظ عليها
كيانها : « إنكم منصورون ، ومصيبون ، ومفتوح عليكم . فمن أدرك
ذلك منكم فليتنق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر . ومن كذب
على بتعمد فليتبوأ مقعده من النار »

وهذه الوصية نابعة من روح القرآن الكريم عندما امتن الله على
بنى إسرائيل بالكرامة بعد الهوان ، ثم طالبهم أن يشكروا نعماته .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ : قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَوَاعَدْنَاكُمْ
بِجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى . كُلُوا مِنْ

(١) كتاب مواطنون لا رعايا .

طَيِّبَاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي . وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى .

وقد كرر النبي هذه العظة لأُمَّته محذراً إياها من سبل الإحلال والتحلل التي تسلكها الأُم البائدة فقال : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل — على معصية — فيقول له : اتق الله ، ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ! ثم يلقاه الغد ، وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ! ! — وكان يجب أن يقاطعه الله — فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال :

« لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَخِطَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . »

ثم قال النبي ﷺ كلا ، والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا « أي لتقهرنهم على اتباع الحق .

والآية والحديث يوجبان المجاهرة بإصلاح الأوضاع الفاسدة ، ومخاصمة صانعيها وحارسيتها أو مقاطعتهم ومجافاتهم

أما السير في ركابهم والانتظام في مجالسهم وموالاتهم على خبثهم فقد

عدته الآية فسقا . فكيف بمن يملقون المجرمين في عصرنا هذا ويسترون مخازيهم ويأكلون من دنياهم على حساب دينهم ؟ .

إن أولئك لا دين لهم البتة ، وإن كانوا أكثر في حواشي الحكام والمترفين من الذباب على مباءات الأقدار ومجامع القمامة . . .

ويوم تقوم سياسة أمة على كتمان الحق وهجران المعروف وإهمال المنكر وترك الأباطيل تستشرى وتستعلن ، والسفاهات تطفو وتنمو ، فأنى تفلح أو تنجوا ؟ .

روى أن رسول الله قال : « لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالمها وترد عنهم العذاب والنقمة ، ما لم يستخفوا بحقها ! قالوا : يا رسول الله ، وما الاستخفاف بحقها ؟ قال : يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكر ولا يغير » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودّع منها » أى أصبحت لا غناء فيها . بعد أن جحدت رسالتها وفقدت خصيصةها . . .

ونحن في أيامنا هذه لا نشكو فحسب من الشياطين الخرس التي تعرف الحق وتكتمه ، بل نشكو من أن الولاة الفجرة في بلاد الإسلام يجدون من يعين على الشعوب معهم ، ومن يصنعون الفتاوى المكذوبة لتسويغ مآثمهم . والدين وحده ضحية هذا الفجور من الظالمين والمظلومين ، والمسوغين والمقتنعين . وانظر إلى التناقض البعيد بين فتويين ، صدرت إحداها في إيران من آية الله كاشاني ، تنص على أن البترول ملك الأمة تستغله لمصالحها وحدها والأخرى ممعتها وأنا في الحجاز ، وهي تنص على أن البترول ملك الحاكم ينفقه كيف يشاء !!!

ولما كنت أعلم أن آبار البترول ليست فيها صفادع تنقذ باسم شخص

معين ! . وأن الله عز وجل لم يكتب صكاً لأحد بملكها والانفراد بأكل غلتها ! . وأن جماعة المسلمين هم الذين يتمولونها ويستعينون بها على إبلاغ رسالتهم وإنماء قوتهم . . . فقد سألت على أى نص أو قاعدة اعتمدت الفتوى وتم العمل بها ؟ ؟ .

فأما العمل فقد بدأ غير منتظر فتوى أحد . .

ثم جاء المرتزقة باسم الإسلام من متسلقة الحكام . . جاءوا لتبوير الأمر الواقع فقالوا : إن الحجاز تولاه كثيرون فلم يُيسّر لهم هذا الرزق ، حتى قبض الله فلاناً فجاء الخير معه ، فهو له . . !

إى وربك هذه هى الفتوى ممن يروّون القباب شركاً تقطع فيه الأعناق ، ثم يرون نهياً لا نظير له فى أرجاء العالم فيحنون له الأعناق . . !

الفرد يحرس الإيمان فى نفسه وفى بيئته

لا يمكن تجاهل العلاقات الوطيدة بين الإنسان والجماعة التى يحيا فيها ، ولا إسكار التفاعل المتبادل بين الفرد وبيئته ، ولو كان مألوفاً فى نظام الحياة للطرد أن المرء يعيش مطوياً على نفسه مقطوعاً عن غيره ، لا يتأثر بأحد ولا يؤثر فيه أحد ، لجاء الدين يوصى الإنسان بالإقبال على خاصة نفسه والاهتمام بما يعنيه من شئون ، غير آبه بعدئذ لما كان أو يكون .

لكن الإنسان لبنة فى بناء متماسك ، أو فرع من شجرة متصلة ، وهو — طوعاً أو كرهاً — لا بد أن يعترف بهذه الصلات العامة ، وأن يحدد بدقة موقعه من هذا الاختلاط المقروض . وقد جاء الإسلام فأقر هذا الترابط القائم . وهل يسعه إلا هذا ؟ ثم بنى تعاليمه على هذا الأساس فجعل المسلم رقيقاً على دينه فى مجتمعه كما هو رقيق عليه فى نفسه ، وزوده بأحلاق من الصراحة والشجاعة

توجب عليه أن يفعل الخير ويدعو إليه ؛ ويجب المعروف ويأمر به ويعمل على إشاعته ، ويكره المنكر وينهى عنه ويسعى إلى تغييره . . .

ولم ير ذلك نافلة هينة يتطوع الإنسان بأدائها ، أو يكسل ولا عليه !
كلا . فالتواصى بالحق ، والصبر على مشقاته من أركان الفلاح :

« إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وإسداء النصيحة لكل من يحتاجه هو صميم الدين « الدين النصيحة » قالها النبي ثلاثا . قلنا لمن ؟ قال « لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »

وعن جرير بايعت رسول الله على السمع والطاعة ، فلقنني « فيما استطعت والنصح لكل مسلم »

وعن أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بمخلال من الخير ، أوصاني « أن لا أخاف في الله لومة لأثم ، وأن أقول الحق وإن كان مرا »

ومرارة الحق تنشأ من كراهية المبطلين له ، وحرصهم على إسكات دعائه مما يجعل الثائرين على الفساد يتعرضون لمكاهر شتى . ومن هنا تتفاوت المراتب ويمحص الإيمان . فالمسلم البصير بما هو عليه من حق ، الواثق بما عند الله من خير ، لا يبالي أن يقذف بالكلمة الصادقة يزلزل بها كيان الظلم غير ناظر لبطش مخلوق

والإسلام يربي بنيه على هذه الجرأة .

قال رسول الله : « لا يحقرن أحدكم نفسه ! قالوا : يا رسول الله ، وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أن الله عليه مقالا — فلا يقوم به — فيقول الله عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ! فيقول : فإياي كنت أحق أن تخشى » . . .

ومهما كانت عظمة مرتكب للنكر ، فإن المؤمن العظيم يستهين بملوك الدنيا أجمعين إذا نظر إلى جلال الله وواسع فضله على من يرمى بالحق في وجوههم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر » فإذا سفك دمه في هذه السبيل فقد فاز بأعلى الدرجات « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » . .



المسلم إذا مكلف بترك الشر ، وتنظيف المجتمع من لوثاته ، مطالب أمام الله بنبذ المعصية ، ومحو آثارها من حوله . . فرسالته تتجاوز الحدود الضيقة لشخصيته إلى نطاق أرحب ، يشمل أمته كلها ، بل يشمل العالم أجمع .
هل معنى ذلك : أن الإسلام يأمر بالتدخل في تصرفات الآخرين والتعرض للحريات الشخصية .

ونقول : نعم إن الحرية مكفولة لمحاربة الظلم ، لإيقاعه والجور على المصلحة الكبرى للبشر ، والإسلام يعتبر الفساد داء خبيثاً ، لا يقتصر شره على صاحبه بل يتعداه إلى كيان الأمة كلها . وكما أن المصاب بمرض معد تصادر حرية انتقاله من مكان إلى مكان ويحجز في مستشفى خاص حتى لا تنتشر جراثيم علته بين الناس فكذلك الشخص الفاسد !! إن لم يضرب على يده ويستنكر ما بدا منه ، شاع فساد ووجد في القلوب المريضة قبولاً حسناً ، وفي البيئات الضعيفة مرتناً خصباً والويل لشعب تتبجح فيه المعصية ، وتسير مستعلنة من غير نكير ، إنه يسير حثيثاً إلى الهاوية ! والحق أن المجتمع يدفع عن نفسه حين يجس أوئلك الحق ، ويمنعهم عن غوايتهم . وقد ضرب الرسول مثلاً رائعاً لاتبعة الفرد نحو الجماعة وحق الجماعة على الفرد فقال : « مثل القائم في

حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها
وبعضهم أسفلها .

فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم .

فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ..!!

فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا
ونجوا جميعاً .

هذا المثل أدق تصوير للمسئولية الفردية والجماعية ، ولعقبى التفريط فيها .
إن الشخص الأخرق لو ترك يصنع ما يحلوه فيسقط المجتمع كله خطوة
في طريق البوار ، فإذا كثر هؤلاء انخرق ، وتعددت الخروق التي يصنعونها ،
فالمجتمع غارق لا محالة .

وقد تكون هناك قلة صالحة تكره هذه للعاصي ! بيد أنها في المخرج
السائد لا تنجو .

روى ابن حبان عن رسول الله أنه قال : « يا عائشة : إن الله إذا أنزل
سطوته بأهل نعمته ، وفيهم الصالحون ، فيصيرون معهم ، ثم يبعثون على
نياتهم » وفي رواية لزينب بنت جحش « أنهلك وفيها الصالحون ؟ قال : نعم
إذا كثرت الخبيثات » . .

هذه الأحاديث نذر صارخة بأن ترك الأمور تمشي في أعنتها ، يمح
بها الهوى ولا يقمها الهدى ، حتى تنفرد بالزمام الأيدي الملوثة . . يورد الأمة
أوخم العواتب .

وواجب الصالحين المصلحين أن يتعقبوا الشرور في مظانها ، وأن يقتلوا
في مهادها ، ولأن يستأصلوها وهي جنين ضعيف ، أفضل من أن تفرسهم وهي
وحش عنيف .

وعن أبي بكر الصديق قال يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية :
« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . . . » ،
وإنى سمعت رسول الله يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه
أوشك أن يعصم الله بعقاب من عنده » .

وفي رواية : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يقدر أن يغيروا ،
ثم لا يغيروا ، إلا يوشك أن يعصم الله منه بعقاب » .

والآية المذكورة وهل الناس في معناها وحسبوه مصادماً لما تقرر في الدين
من ضرورة النصح والتذكير والنقد والتوجيه . وذلك غلط بين ، نبه إليه
أبو بكر في الصدر الأول ، إذ معنى الآية متصل بموقف الناس من العظائم
والنصائح التي تساق إليهم ! فإن الداعية المخلص يجب أن يكون شديد الرغبة
في نفع الناس بما عنده وذلك يتقاضاه الإصرار على التبليغ والحرص على
التنفيذ ، فإذا قام بما عليه من بلاغ ولم يقم الآخرون بما عليهم من انصياع فهل
قتهى رسالته .

كلا . فالمسلم يجب أن يكون قواماً لله شهيداً بالقسط مقررراً للحق ولو لم يغير
جهده المبذول شيئاً من الواقع المريض ، وحسبه أنه لم يترك الفجور يسير هادئاً ،
بل أثار عليه ما استطاع من شغب ، وهذا ما تقصده الآية :
« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .
إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » .

فالخطاب للمؤمنين في هذه الآية كالخطاب للرسول في قول الله له :
« ليس عليك هدام . ولكن الله يهدي من يشاء » .

ولم يقل أحد بأن هذا الخطاب إجازة للنبي بترك الدعوة إلى الله ووصية له
بأن يعدل عن محاولاته في تعليم الجاهل وإيقاظ الغافلين .

كلتا الآيتين تعزية للناصح الأمين إذا أحزنه شرود الكثيرين عن الحق ومضيههم في طريق الزلل والغي . وكلتاها لا تعنى إبطال القاعدة للماضية في الإسلام إلى قيام الساعة .

قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

إن هذا العنوان يلى على ألسنة المشتغلين بالدين حتى لم يعد واضح الدلالة على الحقيقة التي يرمز إليها . ولو يعلم الناس ما قصد إليه الإسلام من إقامة هذا للبدا الخطير لأيقنوا أنه وضع به أسس التمرد على المظالم والثورة على الفسوق ، وتجريء العامة فرداً فرداً على أن يصدعوا بالحق ، وأن يصدعوا به رأس كل جبار عنيد . . . !!

ولن تمثل الحرية في أوسع مداها وأنبى غاياتها كما تمثل في هذه القاعدة الركينة من قواعد الإسلام .

وقد تسأل : ما قيمة الأمر والنهي بين من يثسنا من ائثارهم وانتهائهم ؟ أليس السكوت أجدى ؟

والجواب : بل السكوت خطر بالغ ! .

ان استنكار الفظائع — ولو لم يغير من وقوعها — يعتبر في نظر الإسلام ملاحقة للإثم ، وإيقافاً لسيره ، وقتلاً لجرثومته في المراحل الأولى لحياتها قبل أن يتم نماؤها وقبل أن تستتبع من صور الإثم ما هو أشد وأنكى .

وما يروى عن الرسول « كيف بكم اذا فسد شبابكم ، وطغى نساؤكم وتركتم جهادكم ؟ قالوا : أو كل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله ، وأشد من ذلك سيكون . كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : أو كل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله ، وأشد من

ذلك سيكون ! . كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً ؟
قالوا : أوكل ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : بلى والله وأشد من ذلك سيكون !
كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ! » .

أنظر إلى هذا الترتيب الدقيق في وصف أطوار التحلل التي تعترى الأمم !
وكيف يستحيل العصيان من سيئ إلى أسوأ ؟ وكيف تسلم كل مرحلة إلى
ما هو أشد منها بلاء ؟ . والعلة الأولى هي التفريط في الأمر والنهي .

فلا غرو أن يقدر الدين هذه الآثار فيوصى بنيه كافة بوجوب الإنكار
« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع
فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وقيمة التغيير بالقلب تبدو في مقاطعة المجرمين
والنفور من أحوالهم ، فإذا لم يكن المرء حرباً معلنة عليهم فلن يكون أبداً
عوناً لهم ! .

وفي كل مجتمع يصطرع فيه الحق والباطل تجدد في محاربة المبطلين فريقاً
شديد الحماسة للخير ، شديد الحماسة على الشر ، يصارح بعداوته للمجرمين ،
ويكر عليهم بحملات كموج البحر ، تلاحق أولاهم أخراهم ، فما تنداح واحدة
إلا تبعثها أختها مرغية مذبذبة ! .

وربما وجدت فريقاً يسأم هذا الجهاد ويقنط من فائدته ويقول كما حكى
القرآن الكريم :

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ؟ قَالُوا : مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » .

غير أن هذا التساؤل بين ممثلي الخير من أهل الحق لا يطول أمد ، فإن
مرّ الأيام على الحرب الدائرة بين المعروف والمنكر يزيد الهاوية بين الفريقين

العاملين لها عمقا وسعة ، حتى يتميز المعسكران وينكشف تنازعهما على البقاء ، فلا تقع العين إلا على أبرار يدعون إلى الخير ، وأنصار يؤازرونهم ، أو فجار يدعون إلى الشر وأشياء يتبعونهم ! وحتى تصير القلوب كما روت الشئنة : « على قلبين على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباداً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

وعندئذ تكتب النجاة لمحاربي المناكر وأعداء الشر فحسب .

« فلما نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون » .

وكما شرع الله قاعدة الأمر والنهي صيانة للجماعة من تطرق العبث والقوضى إلى نواحيها ، شرعها كذلك قيادة لها إلى الكمال ، ودفعاً إلى الأمام وإثباتاً لمشاعر التراحم والحنان بين الإنسان والإنسان . !

فأنت إذا رأيت مكفوف البصر يمشى في طريق خطرة ، يوشك أن تدهمه فيها عربة أو قاطرة ، سارعت — بمحض الرحمة — إلى الأخذ بيده وتجنبيه الأخطار التي قد تعرض له . . . والشخص الذي أغواه الشيطان ، وأطارت به الأهواء ، إنما يسير في طريق مهلكة ، ستقتله دواهيها إن عاجلاً أو آجلاً .

فمن أمارات الرحمة العامة ، وآيات الإخاء الصحيح أن ترشده إلى الخير وتوضح له أسباب النجاة . إنك متنطق وحدك بصيحة التحذير إذا رأيت امراً يمشى بخطا ثابتة إلى الهاوية ! ولن تسكت إلا لواحدة من اثنتين ، إما أنك لا تؤمن بأن هناك خطراً أمامه ، وإما أنك لا تبالي بدق عنقه ! .

وكلتا الحالتين لا توصف أبداً بأنها إيمان . .

ولما كان الله سبحانه يعتبر الإيمان بين أصحابه علاقة تناصر وتحاب فقد اعتبر ائثارهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر من لوازم هذه العلاقة وقدمه في الذكر على أركان الدين نفسه .

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

وإنك لتحس حرمة هذه العلاقة وعظيم حقها فيما يروى عن أبي هريرة كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة — وهو لا يعرفه — فيقول له : مالك إني وما بيني وبينك معرفة ؟ فيقول : كنت ترانى على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهى .

إن الإسلام لا يرضى بشيء دون ارتفاع المستوى العام لبنية جميعا في كل ناحية من نواحي الحياة . والرقى العقلى والخلقى في طليعة هذا السمو المنشود . الرجل العالم مسئول عن الجاهل ، والقرية العالمة مسئولة عن الجاهلة ، والأمة العالمة كذلك مسئولة عن الجاهلة .

وإليك طرفاً من الأسلوب الذى كوّن به الرسول الكريم أمته ، لترى كيف جاهد هذا النبي لإشاعة التربية والثقافة بين من حوله أجمعين .

روى الطبرانى عن علقمة بن سعيد عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله ذات يوم ، فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ، ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعلمونهم ، ولا يعظونهم ، ولا يأمرونهم ، ولا ينهونهم ؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليُعَاقِبَنَّ قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم .

وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون . . . أو لأعاجلهم العقوبة ،
ثم نزل ، فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين .
هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب .

فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله فقالوا : يا رسول الله ذكرت
قوماً بخيراً وذكرتنا بشراً فما بالنا ؟ فقال : ليتعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم
وليتفقههم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون . أو لأعاجلهم
العقوبة في الدنيا ! فقالوا : يا رسول الله أنقطنُ غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم !
فأعادوا قولهم : أنقطنُ غيرنا ؟ فقال ذلك أيضاً ! فقالوا : أمهلنا سنة ! فأمهلهم
سنة ليفقههم ويعلمهم . ثم قرأ رسول الله هذه الآية « لعن الذين كفروا من
بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم » هذا لون من الكفاح
الذى شنه الإسلام ضد الأمية العقلية والنفسية التى تسود البدو وأضرابهم من
الفلاحين . يريد ليفتق أفكارهم ويكسر أغلالهم . .

أما المسلمون اليوم فإن كبراءهم يخشون طلائع العلم بين الجماهير كما يخشى
الصوص مطلع الشمس وهم يلتفون بالظلام لسرقة الآنام !

التناصر فى وجه الظلم . . .

وذلك من أقوى الدعائم التى وطد الإسلام بها الحريات وأقر العدالة
وحسم لوثات المستبدين .

إن الغاشم ربما لا تردعه العقوبة المرجأة فى الآخرة وربما لا تصده
الزواجر والحدود التى يقيمها القانون . ولكنه ينقمع ويتردد إذا أدرك أن
ضحيته عزيزة المنال وأنه دون الأفتيات عليها قد يهلك هو نفسه ، أو تهلك
رجال ورجال . . .

ومن ثم شرع الإسلام مبدأ التناصر بين بنيه ، فإذا رأيت رجلاً وقع في حرج وأوشك أن يهون أو يصاب ، فحق عليك أن تهرع لنجدة ، وأن تسارع لمعنته وأن تشعره بأن لن يكافح جور المعتدين وحده . بل إنك إلى جانبه تشاطره الحلو والمر حتى ينتصف لنفسه ويخرج من ورطته موفور المال والعرض والدم والكرامة والإباء .

تلك هي سنة الإسلام ! لا يجوز أبداً أن يبقى المظلوم فريداً يتلفت إلى الأعوان فلا يلتقي صريحاً .

وأمر الله الواضح وإرشاد رسوله البين أن جماعة المسلمين مسئولة عن حماية الحق بعملها وتأييدها كما هي مسئولة عن حمايته بالقول والبيان « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله » . وعبارة النبي صلى الله عليه وسلم في التعريف بمبدأ التناصر تستوقف النظر طويلاً ، فهو يقول : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ! فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً . أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » .

كان من الممكن أن يندفع هذا الإيهام ابتداء بصوغ المعنى في عبارة أخرى ، أنصر أخاك مظلوماً وأنصحه ظالماً مثلاً . . . بيد أن أى تعبير آخر سيفوت حتماً ما يقصد النبي إلى توكيده من معنى التناصر الكامل ، وإفهام كل مسلم أنه ملزم بمظاهرة أخيه وشد أزره ، فإن كان مظلوماً قاتل معه جنباً إلى جنب ، وهذا إنتصار له . وإن كان ظالماً لم يدعه يلتقي عاقبة عدوانه من قصاص وإساءة بل جنبه هذا الهوان ! ! فمنعه من أسبابه ! ! .

وهو في كلتا الحالتين قد أعز المظلوم كآخ فلم يدعه يذل ، وأرشد

الظالم كأنخ فلم يدعه يضل ، وحفظ لهما جميعاً ما ينبغي من تأييد ونصره ،
وأذهب عنها ما يكرهه الإسلام لكل مسلم من مشاعر العزلة
والوحشة والضعفة . . .

إحتاط الإسلام لضمان الحقوق الخاصة والعامة بتقرير ثلاثة مبادئ
يكل بعضها بعضاً :

١ — كف يد الظالم .

٢ — استنهاض المظلوم ليدفع عن نفسه .

٣ — مطالبة الغير بالتدخل لصد العدوان ورفع الغبن .

وليس يتصور فرض آخر يُضم إلى هذه المبادئ حتى يتم تأديب
الأقوياء وتدعيم الضعفاء ولو جمعنا هذه الأطراف في بلادنا ما شكونا حيفاً .
ولو توأصى أهل الأرض بهذه المبادئ ما قامت ثورة ولا سفكت
قطرة دم ، ولو أنصف الناس لاستراح القاضي !!

ولكن الذى حدث من أجيال أن الظلم وقع ، وأن المظلوم رضح له ،
وأن الآخرين نقضوا أيديهم من النصرة والنصيحة ، فسارت القافلة سيرها
الأعمى على غير هدى .

وإني أمد بصرى اليوم فى بعض بلاد الإسلام أوفى كثير منها فأرى
هذا السوء المضاعف ، أسمع عواء الذئاب البشمة من لحوم الضحايا ،
وأنيباً خافتاً للمظلومين المأكولين ، وتعليقاً محايداً للجبناء الذين نجوا
بجلودهم من الخالب الباطشة .. !!

ولولا أن الله يتعهد الدنيا بقوم لهم فطر سليمة وأفكار مستقيمة يحاربون

الظالمين ، ويستثيرون المظلومين ، ويؤلبون القريب والبعيد لإحقاق الحق وإبطال الباطل . لولا ذلك لمادت الأرض وهلك الحرث والنسل .

حارب الإسلام الظلم . روى النبي عن الله تبارك اسمه « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . . . » ، وقال رسول الله : « صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى ، إمام ظلم غشوم ، وكل غال مارق » وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

فإذا وقع على امرئ ظلم فهل يسلم به ويستكين له ؟ أم يقاتل دون حقه ويثأر لنفسه ؟ يقول الله تعالى : « فما أوتيتم من شئ فمتاعُ الحياة الدنيا . وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم ينوكلون » .

ثم سرد أولئك الذين يستحقون الخير الباقي عند الله فعذب فيهم : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عندهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذابٌ أليم » .

والآيات وإن استعجت العفو إلا أنها لم تندب إليه إلا بعد ثبوت الحق لصاحبه ، فيجب أن يعرف المخطئ جريرته ، ويجب أن يعترف بأنه أهل للعقوبة ، ويجب أن يدرك المظلوم بأنه يستطيع الثأر لنفسه ، وأنه — إذا نزل عن حقه — فسامحة مشكورة وتطوّل بالفضل .

والواقع أنه لا يجرح الإنسان كأن يرى مهذراً لا وزن له . أما إذا أقر له محقه ثم سئل النزول عنه فقلما ينمسك به . وهذه جميعاً انفعالات يحترمها الدين وينفخ فيها من روحه لتنمو وتقوى .

والذين يشهدون المعركة بين القوى والضعيف ، هل يدعونها تنتهى
حسب قوانين الغاية فلا معونة ولا تكبير ؟ .

كلا كلا ! لا بد من التدخل باسم الإسلام لإسعاد المستضعف ونجدة
قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك
فيه حرمة ، وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته
وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ، ويتهك فيه من
حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » .

وما يروى في تدعيم مبدأ التناصر ما حكاه النبي عن ربه جل شأنه :
« وعزتي وجلالي لأنتقم من الظالم في عاجله وآجله ، ولأنتقم من رأى
مظلوماً ، فمدر أن ينصره فلم يفعل » ! .

وروى كذلك « أمر بعبد من عباد الله أن يضرب في قبره مائة جلدة !
فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة ! فلما ارتفع عنه وأفاق ، قال :
علام جلدتموني ؟ قال : إنك صليت صلاة بغير طهور . ومررت على مظلوم
فلم تنصره » !! .

وهذه الآثار تبين روح الدين فيما يجب أن تكون عليه العلاقات بين
الناس ، وإنك لتر الآن بالطريق فتجد شرطياً يصفع بائعاً جائلاً أمام جمهور
ضخم من النظارة الذين يرون هذا العمل الآثم ، ثم يمضى أكثرهم غير آبه ،
ويقف الباقون ليزجوا الرجاء إلى الجندي كي يعفو ويصفح عن
عدوانه ! ! !

لو أن سوط الظلم إذ مس جسد مسكين تأوّه له ألوف ! وسرى الألم إلى
جلودهم فلسعها ، فبدلاً من أن يصرخ للعدوان صوتاً فذياً ، تجاوبت بالوجع

والغضب أصوات جمهور غفير . . إذن لفكر الظالم ألف مرة ومرة قبل أن يفكر في الانفراد بمخلوق لينهشه !

ولكن تقطع الأواصر ، وضعف الثقة ، وزقة الإيمان ، جعلت كل أحد يعيش في نطاقه الخاص ، ويقول معلقاً على أحزان الآخرين (ومالي أنا) ؟ ثم يحىء دوره في تجرع الكأس الذى شربه غيره قبلاً ، فيزدرده في صمت ! ولو حدثته نفسه بالصدق لقال : إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض . .

لقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة الوقوف إلى صف المظلوم حتى يندفع الضر عنه فقال : « لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً ، فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » .

كفور نجم . .

روى أن عمر رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فخطب الناس وذكر لهم ما رأى فقال له على : لا بد من أربعة شهداء . لا يقبل رجل وحده ولو كان أمير المؤمنين . فطوى عمر الخبر في نفسه وسكت . . إنه وإن كان حاكماً للمسلمين فليس يزيد عنهم في شيء وما يستطيع أن يستغل سلطانه في إيذاء رجل أو امرأة يوقن في نفسه أنهما فسقا عن أمر الله .

ولقد ثبت من تعاليم الإسلام قول النبي صلى الله عليه وسلم « ظهر المؤمن حى إلا بحقه » أى لا يجوز ضرب مسلم ولا إيذاؤه إلا إذا استحق ذلك بجرم ارتكبه وقضى عليه فيه بعقاب .

والقضاء في القصة التى حكيت عن عمر لا يتم إلا بنصاب كامل من الشهود . وما دام ذلك لم يتحقق فلا سبيل لعمر إلى جلدائها والنيل من ظهورها وعمر وقاف عند حدود الله .

لكن انظروا إلى عمل رجال الأمن عندنا . . في الوقت الذي لا يدين الإسلام فيه متهماً إلا بعد بينات حاسمة ، لاتشم بعدها رائحة ظلم ، ترى الواحد من المساطين على الناس بالجبروت يلتقي بالأبرياء في السجون ويقلبهم ظهراً لبطن في العذاب الأليم وبحسب أنه في حماية قوة مبهمه يستطيع أن يفعل معها ما يشاء دون أدنى عقاب . أسمعت ما حدث في « كفور نجم » أرايت السطو على الأعراض والاستهانة بقيم الأنفس ؟ ومن

من الرجال الذين وظفوا لحماية الأعراض وصيانة الأنفس !

هذه ليست جريمة معتادة !

إيها أولاً إيذاء بغير حق . وهي ثانياً خيانة للواجب فالعمل الذي يأخذ عليه هؤلاء الموظفون رواتبهم هو منع ذلك لا إيقاعه ، وهي ثالثاً استغلال للسلطة المخولة في التكبر والغطرسة والأمة إنما تشغل الموظف خادماً لها لا سيدياً عليها . وهي رابعاً بث لروح الدعة والذلة والهوان بين أفراد الشعب وهي خامساً دليل تأخذ الدولة المحتلة على أن أصحاب الجلايب الزرق في خطر . مع أننا نكافح من سبعين سنة لقطع دابر الإنجليز من هنا ونكذب ادعاءاتهم التي يخلقونها وفي مقدمتها أن منا من يهين العلاحين ! .

وعندى أن هؤلاء الذين ارتكبوا حوادث « كفور نجم » لو أن الدولة حكمت عليهم تهمة الخيانة العظمى للشعب . . وأسلمت رؤوسهم إلى المشانق كي تقطعها واحداً واحداً ما عدت بذلك وجه الحق . فإن هؤلاء الأوغاد أعطوا الإنكليز حجة وأحروا قضية الاستقلال أميالا إلى الوراء ، وأثاروا الذعر في قلوب الجماهير ، ولوثوا سمعة الحكم الوطني .

حكم إذا فسق عن أمر الله

وظيفة حاكم ما في أي بلد مسلم ، أن يحرس الإيمان ويقيم العدالة ويصون المصالح . فإذا فرط في أداء هذه الواجبات فقد قصر في أعمال وظيفته ، ووجب تنبيهه وإرشاده . أما إذا هدم الإيمان بالاحاد ، وأضاع العدالة بالجور ، وأهمل المصالح باللهو ، فقد خرج عن طبيعة وظيفته ووجب إسقاطه . . .

وإسقاط حكومة ما في البلاد التي تسودها النظم الديمقراطية عمل معتاد . وفي الغرب شواهد متجددة على أن استبدال وزارة بأخرى أمر هين . وسحب الثقة من أية وزارة هناك يرجع إلى رغبة الشعب في تحقيق مطالب معينة أو رؤية لون جديد من النظم والأفكار . . . ولما تسقط حكومة هناك لخروجها عن طبيعة وظيفتها . فإن يقظة الأمم هناك . وأمانة الحكام لا تسمحان بتطور الأمور على هذا النحو القائم !

وليت الأمور في الشرق تجري على هذا السق الرتيب فيستريح الحاكم والمحكوم من اضطراب الأجواء وعصف الأنواء . ويبدو أن دول الغرب نظمت أحوالها كذلك على ضوء ما أفادت من تجارب ماضيها ، فإن الثورات الطائشة والانقلابات المفاجئة كلفت الأمم تضحيات ثقيلة .

فلما جاء واضعو الدساتير الحديثة ليحكموا العلائق بين الشعوب وحاكميها أقاموا في صلب النظم الدستورية أعمدة ثابتة تشبه مانعات الصواعق ، لتفرغ الجماهير فيها غضبها إذا رأت حاكمها أخطأ في حقها ، دون أن يتعرض جوهر الحكم لزلزال يدك بنيانه . .

وهذا حسن ! وما يمنع المسلمين من الإفادة منه إلا أنهم مغلوبون على أمورهم من قديم والمرء لا ينظم بيته إلا إذا كان سيداً فيه . وقديماً قال المتنبي :

سادات كل أناس من قومهم وسادة المسلمين الأعبد القزم ١١
وربما كانت أمم الغرب غير محكومة بما أنزل الله ، فهي على كل محكومة
بما أرادت لنفسها .

أما الشرق الإسلامي من عصور خلت فالأمر فيه على النقيض ، لا هو
يحكم بما أنزل الله ولا هو يحكم بما أراد لنفسه . وإنما تستبد بشئونه عصابات
من المرتزقة ، احترفت أكل الناس كما يحترف الملاحون حراثة الأرض
ورعاية السائمة :

جاء الإسلام فاعتبر الحكم تكليفاً لا تشريفاً ، وحمل الحاكم من الأمانات
ما تنوء به الجبال — انظر إلى وظيفة الحاكم كما جاءت على لسان الرجال الذين
رباهم محمد رسول الله ليكونوا حكاماً على المسلمين من بعده .

عن الأغرابي مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر بعث إليه ،
فدعاه ، فأثاه . فقال أبو بكر : « إني أدعوك لأمر متعب لمن وليه ! فأتق الله
يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ . ثم إن الأمر معروض
لا يستوجه إلا من عمل به . فمن أمر بالحق وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف
وعمل بالمنكر ، يوشك أن تنقطع أمنيته وأن يحبط عمله ! فإن أنت وليت عليهم
أمرهم ، فإن استطعت أن تبغ يدك من دماءهم ، وأن تضر بطوك من
أموالهم ، وأن تكف لسانك عن أعراضهم فافعل . ولا قوة إلا بالله . . »

فلما ولي عمر أمور المسلمين كان من فقهه العميق لهذه النصيحة وإدراكه
الصحيح لعمل الحاكم أن قال : « لوددت أني وإياكم في سفينة في لجة البحر ،
تذهب بنا شرقاً وغرباً فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم ، فإن استقام
اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ! فقال طلحة : وما عليك لو قلت : « وإن تعوج
عزلوه ! » فقال عمر : « لا . القتل أنكل لمن بعده . . »

إن التلاعب بأمور الجماعة مصيبة نكراء . وعمر يريد أن ينكل بالحاكم الطائش ليكون لمن بعده عبرة .

وعمر ، وفقهاء الأمة لا يفتنون بقتل الحاكم جزافاً ! فإن قتل نفس أى نفس — يعتبر كبيرة شنعاء ، يعتبر خرقاً فى نظام الوجود : « مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا » وقال رسول الله : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » . إنما يتجرأ على الحاكم ويُستباح ، يوم يتجرأ هو نفسه على الأمة ويستبيحها ويسقط هيبتها ويتنكح حرمتها . .

وقد احتاط الإسلام احتياطاً شديداً فى إثبات هذه القضية . فلم يدع لأحد تصيد مقدماتها من أعمال متشابهة تضرب فيها وجهات النظر ، ولا من أخطاء يمكن الرجوع عنها أو يمكن تحمل العنت الخفيف فيها . وللإسلام عنده فى هذه الأناة . وهى لمصلحة الأمة لا لمنفعة الحاكم . فإن عواقب الفتن وخيمة على مستقبلها ، ومن ثم نفهم مارواه عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ! وأن لا ننازع الأمر أهله . إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ! وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » . والأمة فى حل من السمع والطاعة بداهة إذا حُكمت على أساس من جحد الفرائض وإقرار المحرمات ، ونهب الحقوق وإجابة الشهوات . . . لأن معنى ذلك أن الحكم قد مرق من الإسلام وفسق عن أمر الله ، وأن الحاكمين أنفسهم قد انسلخوا عن الدين ، فليس لهم على أحد عهد ! ! والله يقول : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ، بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . .

وقد أوجب الله طاعة أولى الأمر علينا ، ما داموا مِنَّا ، فقال :
« وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » . ولن يكونوا مسلمين إلا إذا خضعوا لأحكام الدين ،
ولن يكونوا كذلك إلا إذا أحلوا حلاله وحرّموا حرامه ! .

نعم ، إن المسلم قد يلم بسيئة ، أو يفرط في واجب ، ولا يكون بذلك
مرتداً . هذا حق ، لكن البون بعيد بين اقتراف محذور ، تعقبه توبة من
قريب أو من بعيد . . . ورجل يصرف شئون الدولة على أسس تجعل الحرام
متداولاً كالنقد ، مستساغاً كالطعام والشراب .

إن الجريمة خروج على القانون ، فإذا جاء حاكم ليجعل الجريمة نفسها
قانوناً يحكم الناس إليه فمن العبث وصف هذا العمل بأنه « إسلام » . . . !
فما تكون الردة إذن عن الإسلام ؟ لذلك قال رسول الله : « اسمعوا
وأطيعوا وإن أمرٌ عليه عبد حبشي ، ما أقام فيكم كتاب الله عز وجل » .
وقال « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره ! مالم يؤمر بمعصية !
فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وللحكم إغراء مُزَيَّنٌ لمتوليه أن يتخفف رويداً رويداً من تبعات الفضيلة
والعفاف ، وما أكثر ما يذكر الحاكم شخصه وينسى أمته ، وما أسرع أن
ينسى مثله العليا ويهبط عنها قليلاً قليلاً . وما أيسر أن يستخدم سلطانه الواسع
في غير مامنح له . . .

بيد أن دين الله إن حاف عليه الولاة الطاغون فيجب أن ينتصب له في كل
زمان ومكان من يذودون عنه ويصونون شريعته ، ولو تحملوا في ذلك الويل
والثبور . وقد بين الرسول الكريم أن الحكم من بعده متعزّيه أطوار شتى
وسيدخل من أهواء الحكام في مثل ما يدخل البدر عندما تغطي صفحته الغيوم
والسحب فقال :

« ألا إن رحي الإسلام دائرة فدوروا مع الإسلام حيث دار .
« ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب . !
« ألا إنه سيكون عليكم أمراء مضلون ، يقضون لأنفسهم مالا يقضون لكم ،
إن أطعتموهم أضلوكم ، وإن عصيتموهم قتلوكم . . . !
« قالوا : وما نصنع يا رسول الله ؟ قال : كما صنع أصحاب عيسى ، نشروا
بالمناشير وحلوا على الخشب . . .

« والذي نفسى بيده لموت فى طاعة الله ، خير من حياة فى معصية الله .
على أن لقول الحق وغرسه فى المجتمع سياسة لا ينبغى أن تغيب عن أذهان
الدعاة والمصلحين ، فليس الهدف المقصود أن يستقتل المرشدون من غير
جدوى ، أو يضحوا بغير ثمرة فذلك مالا ينتفع به الحق ولا يضارّ به الباطل .
وقد رأى الفقهاء أن إزالة المنكر إذا استتبت مفسدة أعظم ، فمن الخير
التربص بها ، وارتقاب الفرص السامحة لها . والسكوت حينئذ ليس سكوت
تجنبته وتخوف ، ولكنه ترسم سياسة أفصل فى حرب المنكر كما قال الله تعالى :
« وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

كما أن الحماسة للخير لاتعنى السفاهة على الناس وسوء الأدب فى عشرتهم
والتجارة بأخطائهم ، نغية فضحهم والتشهير بهم ، فذلك كله ليس خلق المسلم
ولا منهجه فى تدعيم الجماعة ورفع شأنها ، فالحرية المطلوبة حدّها الأعلى أن
تتمكن من قول الحق ، لا أن تتمكن من التناول والبذاء . !
« لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ
سَمِيعًا عَلِيمًا » .

عبر من الماضي

الإسلام عقيدة ونظام . عقيدة تعمر القلوب ، ونظام يسود الجماعة ويقودها ، وعمل العقيدة ، ليس إصلاح النفس ، وتكوين الفرد الكامل فحسب بل العقيدة الراسخة دعامة يتأسس عليها كذلك نظام المجتمع وتستقيم بها شئون الحكم كلها .

في فن الرسم تتكون الزخارف الجميلة من شكل معين يكرر وينسق مرات كثيرة لتخرج منه صور شتى .

والفرد الصالح — في نظر الإسلام — الوحدة التي تتكرر فتكون المجتمع ، وتكون الدولة ! ومن ثم فالإشراف على تربية الفرد تربية إسلامية حقة عمل ذو نتائج واسعة ، لأنه يحقق أهدافاً جمة ، إنه يقدم للفرد صلاحه الشخصي ، والمجتمع ضميره اليقظ الحى ، والدولة روح الإخلاص فى حياتها وتلبية أمرها ، وعنصر التفانى فى حمايتها وإلّاغ رسالتها . .

والحكومة لا تكون مسلمة إلا إذا أقامت النظام الذى يدعو إليه الإسلام ، وغرست العقيدة التى تمتد هذا النظام بالحياة والحرارة والنماء . . ! وعلى قدر اشغال الحكومة بذلك يكون قربها أو بعدها من هذا الدين ، فلو أن رجلاً تسمى خليفة المؤمنين واصطنع نوعاً من الحكم لا يقوم على هذين الأساسين ، فهو رجل كاذب فى دعواه ، ولا يسلم له أبداً بالصفة التى امتثلها منها نودى بها ، أو دعى له من فوق المنابر !

وليس الإسلام بدعاً فى هذا المنطق ، فلو أن أمة ما اعتنقت المذهب الشيعى ثم جاء من حكمها بمنهاج رأسمالى فهل تعتبر الصلة قائمة بين الأمة والحكومة على نحو من توافق المكرة ؟

إن الحكومات التي قامت في روسيا التزمت الأصول التي اندلعت من أجلها الثورة الحمراء ، والحكومات التي قامت في فرنسا التزمت المبادئ التي هتف بها الثوار . .

فإذا انحرفت حكومة عن الحدود التي رُسمت لها اعتبرت خائنة لمبادئها ومتمردة على شعبها وقد اعتُبر « نابليون » خائناً لنظام الثورة الفرنسية لما جعل نظام وراثته الملك في يده .

ونحن ننظر إلى الشرائع التي جاء الإسلام بها ، وقررت في قرآنه الكريم وسنة نبيه ، ووزن الحكومات التي تولت أمور المسلمين على ضوءها ، فمن رجحت كفته فهو مثل صالح للحكم المسلم ، وإلا . . فهو مقصر ، أو مفرط ، أو خائن ، أو مرتد ، على حسب موقعه من التعاليم والتشريعات التي لا ريب فيها من دين الله

ولسنا هنا نبكي على أطلال الماضي البعيد أو القريب فما يجدي بكاء على قائت ! ولا نرتب الناس على منازلهم من دين الله ، فما أوتينا علم الغيب ولا معرفة السرائر .

كما أننا لا نحب أن نشغل المعاصرين بتبعات السابقين : فالأمر كما قال الله عز وجل .

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

إنما نقصد إلى تجنب أمتنا العثار على فقه من تجارب الأمس وعظمت التاريخ ، ولا نهتم أبداً لتعديل شخص أو تجريجه إلا بمقدار ما يفيدنا في يومنا وغدنا ، ونعتد ما وراء ذلك فضولاً لا وزن له .

بعد هذه النظرة المجملية إلى طبيعة الإسلام نلقى نظرات عجيلى على طبيعة الحكومات التى قامت باسمه .

أول حكومة أُنشئت للإسلام هى حكومة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حكومة الخلفاء الراشدين ، وتشبه أن تكون امتداداً لحكم النبوة . فالرجال الأربعة الذين وطدوا أركان الدولة كانوا فى الذروة من تقوى الله وشرف الطبع ونصاعة الصفة ، وقد عاشوا مع النبى من بدء الوحي إلى أن اختار الرفيق الأعلى ، فأشربوا حبه وغرست فى نفوسهم اتجاهاته وأقصيته ، وتأسوا به فى تجرده لله ، وتكربس حياته كلها لإبلاغ الدين ، والرحمة بالمسلمين ، ونية الخير للناس أجمعين . ولمزلة هؤلاء الرجال الأربعة واطمئنان الرسول إلى علو سيرتهم وصدق ما يصدر عنهم قال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلاقاً كثيراً ، فعليكم سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .

والحديث فيه إيذان بما وقع من فتن وكراهية للمشاركة فيها . وفيه إشعار بأن سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده شىء واحد . ولم نجد هذا التوافق إلا فى حكم الرجال الأربعة ، وفيه تحذير من استحداث أشكال فى الحكم وفى غيره من شئون الدين ينكرها الإسلام ، واعتبار ذلك ضلالة وهو ما وقع — بعد — وأصاب الدين وأهله منه شرويل . !

كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم منزلة قريش فى العرب ، ويحس بأن الحكم قد لا يعدوها . وتوجس من الاستهتار بهذه الأمانة الثقيلة فاستنزل لعنة السماء والأرض على من يفرط فيها .

عن أبى موسى الأشعرى قال : قام رسول الله على باب بيت فيه نفر من

قريش وأخذ بعضا دنى الباب ، فقال : هل فى البيت إلا قرشي ؟ قيل :
 ىارسول الله غير فلان ابن أختنا فقال : ابن أخت القوم منهم ! ثم قال : إن
 هذا الأمر فى قريش ، ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا
 قسموا أقسطوا . فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس
 أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل !

أسمعت هذا الوعيد العنيف وهذا الدعاء الحار ؟ فاسمع كذلك ما رواه
 البخارى عن سعيد بن العاص ، قال : أخبرنى جدى ، قال : كنت جالسا مع
 أبى هريرة فى مسجد المدينة — ومعنا مروان — فقال أبو هريرة : سمعت
 الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم يقول : « هلكت أمتى على يدي أغيلة
 من قريش » قال مروان : لعنة الله عليهم ! فقال أبو هريرة : لو شئت أن
 أقول فلان وفلان لعنت ! . قال سعيد فخرجت مع جدى إلى الشام حين
 ملكه بنو مروان ، فإذا رآهم غلما ما أحدا قال : عسى أن يكون هؤلاء الذين
 عنى أبو هريرة ؟ فقلت : أنت أعلم . . .

وقد كان مروان والى المدينة . وتسمى — بعدُ — أمير المؤمنين ! وابنه
 عبد الملك ، هو الذى نهى أن يُقال له : اتق الله . . . وهو — كما يزعم —
 خليفة رسول الله ! ! .

إن الخلفاء الأربعة من قريش ، ولكنهم ما كانوا قط دعاة عصبية ولا
 ذكروا نسبهم القَتَلِيَّ أو الجَسِيَّ فى عمل أدّوه ، وحياتهم فى بيوتهم ومع الناس
 نهج فاضل للعفاف والتواضع : وقد كان بينهم تفاوت واسع ، لا فى صلتهم
 بالإسلام ، بل فى المزاج النفسى ، وتقدير الأشخاص والأشياء . وتلك طبيعة
 البشر التى لا معدى عنها .

كان أبو بكر طويل الأناة بادي الرفق ، وكان عمر شديدا حاسما ، وطلما
اختلفا يرى أبو بكر الغفوة عن الأسرى في بدر ، ويرى عمر قتلهم ، يرى
عمر الاقتصاص من خالد بن الوليد ويرى أبو بكر تركه .

وكان عثمان رجلا خجولا رقيقا يحب الاستمتاع بما آتاه الله من طيبات
على عكس عمر الذي يعاف التوسع فيما أتيح له من زينة الدنيا . وكان عثمان
لينا مع اهله وقرباته حتى في أيام رسول الله . صدر حكم بقتل عبد الله بن أبي
السرْح لجرِمة ارتكبها في حق الوحي فجاء عثمان به إلى رسول الله مستشفعا
لأنه أخوه من الرضاع ! وما زال به حتى عفا عنه !

وكان علي بن أبي طالب شيئا بعمر في مضائه وقضائه مباينا لعثمان في
رقته وليوته ، ولكن الطامع العام لدولة الخلافة — بالرغم من أمزجة
رجالها — كان إسلاميا نظيفا ، وكانت الدولة حقا تمثل الإسلام كعقيدة
ونظام خير تمثيل .

١ — كان الحاكم مختار من صميم الأمة ، ترشحه كفايته وثقة الجمهور
به فحسب ! .

٢ — كان جمهور المسلمين يعرف أنه مصدر السلطة . وأن الحاكم أجير
عنده لعمل معين وقواعد الإسلام توجب على الحاكم أن يستشير ، وتوجب
كل فرد في الأمة أن ينصح ويعلم ما يرى أنه الحق . وعلى الحاكم أن يقرع
الحجة بالحجة ، وأن يؤيد وجهة نظره بالعقل ، لا بالسوط . . .

٣ — كان الحاكم — من الناحية الشخصية — رجلا عابدا . بل إن
فضل عبادته هو ما يجعله في نظر الناس أهلا لإمامتهم وولاية أمورهم . وكان
— من الناحية العامة — فقيها في الإسلام ، خيرا بروحه وقوانينه ، كأنه
عالم إخصائي .

- ٤ — كان المال العلم ملكاً للأمة لا يرى للحاكم فيه أكثر من مرتبه المقرر له ، وبيت المال مرصود من قبل ومن بعد لمصلح المسلمين فقط .
- ٥ — كان سواد الناس يرون الحاكم مسئولاً عن إطعام الجائع وإسعاف الضعيف فلم يعرف على عهد الدولة الإسلامية الأولى ضياع أو عيلة . إذ من حق كل محتاج أن يجد ضروراته ، والدولة مسئولة عن ذلك .
- ٦ — الفوارق بين الأجناس لا وزن لها أبداً ، فالرومي والحبشي والفارسي والعربي سواء تجمعهم أحوة الدين ، ويتفاضلون بأعمالهم وحدها والتزعات القبلية دبست في الرغام .
- ٧ — المساواة في الحقوق والواجبات والمغارم والمغانم مقررمة يخضع لها الرجل الغامض في قومه ، والناهب بينهم ، وشارات السيادة المفتعلة لم يكن لها وجود .



هذه هي التقه ليد التي اصطبغ بها الحكم إبان دولة الخلافة الراشدة ، وهي مستمدة كما رأيت من شرائع الإسلام وأهداف رسالته العظمى .

وددنا لو أن الأمد طال على هذا اللون الكريم من الحكم العادل .

يبد أن حظ العالم عاثر . وخروات الشر قدّر لها أن تسبق وتغلب !

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم ، أى قوم أنتم ؟ قال عبد الرحمن ابن عوف : نكون كما أمرنا الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم : بل تتنافسون وتتحاسدون ، ثم تتدابرون وتتباغضون ، ثم تنطلقون إلى مساكين المهاجرين فتحملون بعضهم على رقاب بعض » .

وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مشيت أمتي الميطا ، وخدمتها أبناء الملوك فخر من والروم سلط شرارها على خيارها ! »

وذلك ما حدث . فقد أفلت الزمام من أيدي المؤمنين الصالحين ، ومطاحت الخلافة الراشدة بعد ثلاثين عاماً من قيامها . وبعد أن كان حكام الإسلام أعرف الناس به وأفقههم فيه وأحنهم على أهله أصبح أكثرهم حشالة تافهة تضر ولا تنفع ، وتفسد ولا تصلح .

والرسالات الكبرى في الأرض ، دينية أومدنية ، لا يحسن القيام عليها إلا عباقرتها وفلاسفتها . وفي عصرنا هذا شاهدنا الشيوعية الملحدة ، لا يموت لها زعيم إلا خلفه زعيم مثله أو أكفأ منه . ولو وكل قياد هذا المذهب إلى أغيلة سفهاء لباد بين عشية وضحاها . ولسقطت دولته من تلقاء نفسها .

ولذلك كان انتقال الخلافة الإسلامية من أيدي الأكفاء النابهين من أولى السبق والكفاية إلى أيدي نفر مغمورين دينهم وعقلهم حدثاً جليلاً في تاريخ الإسلام ! ولولا ملابسات صحبت هذا الانهيار في الأداة الحاكمة لوقف سير الإسلام كرسالة عامة . . . !

ومن هذه الملابسات أن كثيراً من ذوى الفضل ، رأوا أن يعترفوا بالأمر الواقع ، وأن يخدموا الدين في ظله قدر ما تواتتهم القرص ، فسلموا للولاة المتغلبين ، وتعهدوا المجتمع بما يمكنهم من إصلاح .

عن ابن عمر قال : دخلت على حفصة رضى الله عنها ، فقلت : قد كان من الناس ما ترين ! ولم يجعل لى من الأمر شيء ، فقالت : إلهق الناس هم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب . فلما تفرق الناس خطب معاوية وقال : من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ! فلنحن أحق به منه ومن أيه ! قال حبيب

ابن مسلمة قلت لعبد الله : هلا أجبتة ! فقال : لقد همت أن أقول : أحق بهذا الأمر منك ، من قاتلك وأباك على الإسلام ، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجميع ، وتسفك الدم ، ويحمل عني غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله في الجنان — فسكت — قلت : حفظت وعصمت ..

(١) ويزيد هذا شاب خليع لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية بله أن يقف على منبر الرسول ويحل مكان أبي بكر وصحبه ..

ومع هذا المنكر الشائن في استخلاف يزيد ، فإن رجالاً كثيرين أعجبهم فقه عبد الله بن عمر الذي يحتقر شخص الخليفة . ويرى أن يتركه وشأنه ، محاولاً خدمة الإسلام في ميادين أخرى . ونحن لا نعلق على هذا الرأي ولكننا نرد إليه كثيراً من الأسباب التي حفظت الإسلام كثرات عقلية . وبشرت به في جهات أخرى بعيدة .

لقد تركت الجبهة الداخلية بموج بعضها في بعض ، وانصرف كثيرون إلى تدعيم الإسلام في ساحات لا تزدهم عليها مطامع الحكم وأثرة رجاله المستبدين ! !

إنني أقدر هذا المسلك ، وأحترم بواعثه ، فالرجل المخلص قد يكتنفه من دسائس الساسة وغفلة العوام وحيل الكبراء ما يصرفه عن التفكير في الرياسة والنزاع الدائر حولها إلى عمل هو أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً ، بل إن الإخلاص قد يتقاضى المؤمن ذلك ! ! ..

على أن هذا المسلك يصلح علاجاً للأغلاط العارضة والأخطار الموقوتة فحسب . ولو كانت تولية يزيد كبوة جواد حدثت من سوء اختيار المسلمين لأمرهم إثر خلل حدث في الأساليب المشروعة لوجب

اغفارها . أما والأمر أخطر من ذلك ، أما والأمر التواء برسالة جاءت
رحمة للعالمين ، واحتيال على تسويد أعراب من صعاليك الجزيرة ليكونوا باسم
الإسلام ملوك العالمين . . . فهذه قاصمة الظهر !

ولو أن المسلمين الفضلاء الذين عاصروا هذه الأحداث الهائلة قدروا
فداحة النتائج التي تمخضت عنها ، ولحقت بصميم الإسلام من جرائها ،
لسفكوا دماءهم في الحيلولة دون وقوعها ، ولكنهم ظنوها فلتة متداركة
فتراخوا في حلها . فلما عرفوا بعد فوات الوقت حقيقة ما حدث ندموا ،
ولات ساعة مندم . . . !!

تَبَيَّنُ أَعْقَابُ الْأُمُورِ إِذَا مَضَتْ وَتَقْبَلُ أَشْبَاهَا عَلَيْكَ صَدُورُهَا
ولا نزع أن الإسلام اختفى باختفاء دولة الخلافة ، أو وقف مدته
العريض ، فإن الملابس التي أشرنا إليها آنفاً عملت عملها العظيم . غير أن
تغيراً طفيفاً ، بدأ يشتد على مر السنين ، طرأ على الإسلام ودعوته الكبرى .
فإن فساد الحكم داخل البلاد — التي تصدر تعاليمه للناس ، ليس
بالأمر الهين . . .

عن حذيفة رضى الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله عن
الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . فقلت يا رسول الله ،
إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من
شر ؟ قال : نعم . قلت : فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه
دخن ! فقلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يستننون بغير سنتى ويهتدون بغير
هدى ، تعرف منهم وتنكر ! ! قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟
قال : نعم ! دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت :

يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ! قلت : فإن لم يكن جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .
والحديث يوصي إلى فساد التطبيق أو اعوجاجه . أما أصول الإسلام فلم يعرها انحراف قط .

القرآن الكريم محفوظ حرماً حرماً : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون » .

والسنة المطهرة ثابتة الجوهر والمظهر ، ولم يحك التاريخ عناية بآثار مصلح وتوجيهات زعيم ، كما حكى عن اهتمام المسلمين بحياة رسولهم .
وقد ازدهرت ثقافة الإسلام في الأيام التي بدأ الحكم يخرج فيها عن منهجه المشروع .

ومن ثم اشتد الصراع بين الأئمة والحكام على ما سنقص — بعد —
وننتج عن ارتفاع المستوى العلمي لدى جمهور المسلمين في الصدر الأول أن أضرار الحكم العاسد احتست في دائرة محدودة . كادت معالمها تتضح في أذهان العامة هي دائرة « السلطان وحاشيته » فقاطعوها ونأوا بجانبهم عنها . ولعل من آثار هذه النزعة ما يدور على ألسنة العامة . حتى اليوم « السلطان من لا يعرف السلطان » !

وأعان على نقصان الشر ، وحصار مصدر الضر ، أن الحكم قديماً لم تكن له الهيمنة على الدقيق والجليل من تشئون الحياة كما هو الآن بعد تحول الدولة إلى سلطة مركزية .

وننتج كذلك عن ارتفاع المستوى العلمي في الصدر الأول ، شدة الإحساس بحقيقة الخير والشر ، والمعروف والمكر فما تقع خطيئة من مستبد إلا لحقتها

صیحات الناقدين بالشکایة والفضيحة ، فكان المظلوم يحظى بالعطف والمواساة وكان الظالم مزرية عليه باللسان إذا عز تأديبه باللسان !

والليل الذى أطق على الإسلام والمسلمين بأسدافه الخالكة ، يوم غاضت منابع العلم وخفتت أصوات النقدة ، ودرست سبيل الدعوة إلى الله ! . ويوم أمست الصحائف التى تمثل الثقافة العامة لهذا الدين وأهله مزيجاً من الأقوال الفارغة والآراء التافهة والمقلید الأعمى والألفاظ الجوفاء ، حتى أشبهت كتب المسلمين فى العصور الأخيرة كتب السحر عند اليهود الأقدمين ، تلك التى قال الله فى دروسها :

« يتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاقٍ . ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون » .

وعندى أن فساد العلم والأدب لدى المسلمين أخيراً يرجع إلى وطأة الحكم المستبد وزيادة توغله ، ورغبته فى إقصاء كل ما يعوق ظلمه ويكسف غلواه . وقد تظاهر الأمران معاً على تحطيم كيان الأمة التى ظلت تقاوم — بالإيمان المجرد — فساد قرون متطاولة حتى جاء القرن الرابع عشر للهجرة فإذا بها مرق مهلهلة فى أيدي الطامعين والغاصبين ؟

وإليك بعض المآخذ على نظام الحكم فى العهد الأموى :

١ — تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض ، واحتكرت زعامة المسلمين أسرة معينة .

٢ — ضعف إحساس الأمة بأنها مصدر السلطة ، وأن أميرها نائب عنها أو أجير لديها ، وأصبح الحاكم الفرد هو السيد المطلق النفوذ ، والناس أتباع إشارته .

ترى الناس إن سرنا يسرون حولنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

٣ - تولى الخلافة رجال ميتو الضمائر وشباب سفهاء ، جريثون على معصية الله واقتراف الإثم ، وليس لتفاقتهم الإسلامية قيمة ،

٤ - اتسع نطاق المصروفات الخاصة للحاكم و بطائته و متلقيه ، وتحمل هذه المغارم بيت مال المسلمين ، وأثر هذا السرف الحرام على حاجات الفقراء ومصالح الأمة .

٥ - عادت عصبية الجاهلية التي هدمها الإسلام ، فانقسم العرب قبائل متناجزة متفاخرة ، ووقعت الضغائن بين العرب والفرس وغيرهم من الأجناس التي دخلت في الإسلام قبلاً ، وكان الحكم المستبد يثير هذه النزعات الضالة ، ضارباً بعضها ببعض ومنتصراً بإحداها على الأخرى .

٦ - هانت قيم الخلق والتقوى ، بعد ما تولى رئاسة الدولة غلمان ماجنون . وبعد ما لعن السابقون الأولون على المنابر ، حتى أن شاعراً مسيحياً مدح يزيد بن معاوية فقال :

ذهبت قريش بالسماحة والندى واللؤم تحت عمام الأنصار

٧ - ابتدلت حقوق الأفراد وحررياتهم على أيدي الولاة المناصرين للملك العضوض ، فاسترخص القتل والسجن ! حتى ليروى الترمذى عن هشام ابن حسان قال : « أخشى ما قتل الحجاج صبراً فوجد مائة ألف وعشرين ألفاً » وروى البخارى عن سعيد بن المسيب : لما وقعت الفتنة الأولى - بمعنى مقتل^(١) عثمان لم تبق من أصحاب بدر أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية بمعنى

(١) عثمان نفسه ، رجل جليل نبيل ، وقد أحاطت به دسائس بنى أمية فأساءت إليه حياً واستعلت دمه ميتاً .

الحرّة^(١) — فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً ، ثم وقعت الثالثة^(٢) فلم ترتفع
والناس طباخ .

والواقع أن الهزة التي أصابت الإسلام من هذه الفتن المترادفة كانت من
العنف بحيث لو أصابت دعوة أخرى لهدمتها . ولكن معدن الدين وتماسك
العلماء والجاهير حوله أمكنه من اجتياز هذه الأزمات العصبية وهو سالم معاف .
ثم يستأنف سيره في العصور من جديد . . .

هل تورث الزعامة ؟

الخلافة في الإسلام نيابة عن النبوة في رعاية شئون الدين والدنيا ، فهي
زعامة روحية ومدنية لا تتوفر خصائصها إلا في قلة من الرجال الموهوبين
للمتازين ، ولم يثبت لا عقلا ولا نقلا أن جنسا من الأجناس — بله أسرة
من الأسر — قد احتكر في أفرادها هذه المواهب والميزات حتى تحس زعامة
الأمم فيه وتوقف عليه . ! !

والنبوة نفسها ، وهي الأصل ، لم تنتقل بالميراث فكيف تنتقل الخلافة —
وهي الفرع — بالمواريث ؟

وقد لاحظ الأقدمون مظاهر شتى للوراثة ، وبنوا عليها أحكاما صائبة ،
فلم يغالوا ولم ينكروا .

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد

وقد ينخبث الفرع الذي طاب أصله ليظهر فعل الله في العكس والطرده !!

وهذا حق . فقد ذكر لنا القرآن الكريم أن النبوة منحت لنوح وإبراهيم ،

(١) أرسل يريد جوده إلى المدينة فاتهكوا حرمتها وقتلوا كثيراً من أهلها .

(٢) هوجمت المدينة مرة أخرى على عهد الحجاج فقتل عبداً لله بن الربير وأصاره .

أما ذراريهما فقد توزعهما الفسق والهدى . بل أغلبهم ضل السبيل . .
« وَأَقَدَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ .
فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

على أن المنحدرين من آباء عظام — وخصوصا الفاشلين — يرفضون
هذا المطلق ، ويزعمون لأنفسهم حقوقا ما أنزل الله بها من سلطان ! !

فلما جاء الإسلام ، ورفع الله بكتابه أقواما ووضع آخرين ، وتقدم أولو
الفضل والنهي ، وإن كانوا عبيدا ! وتأخر المفرطون والكسالى ، وإن
كانوا نسل بيوتات لها في الجاهلية الأولى شأن يذكر . كان أبو سفيان وبنوه
من هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم في مؤخرة الصف إذ أنهم آخر من
أسلم في مكة .

ومع أن النبي وخلفاءه أكرموا هذا البيت وعرفوا له مكاتته السابقة في
الجاهلية إلا أن نزعة السيطرة والاستعلاء ، الكامنة في دماء رجاله لا تشبعها
الترضيات الخفيفة ! ، إنهم يتطلعون إلى الكثير ! ! إهم يبغون استعادة
مجدهم الضائع .

روى الحاكم عن يزيد ابن أبي سفيان قال : قال لي أبو بكر الصديق حين
بعثنى إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك
أكثر ما أخاف عليك ، بعد ما قال رسول الله : « من ولي من أمر المسلمين
شيئا ، فأمر عليه أحدا محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا
عدلا حتى يدخله جهنم » .

وخشية أبي بكر لها ما يبررها ! وقد ولي معاوية الشام فرسم سياسة بعيدة
المدى لجعلها قاعدة ملك وطيد ؛ فلما حانت الفرصة وثب الداهية على الأمة في

محتها ونصب نفسه ملكا عليها . مرت سنون هجاف ثم أعلن معاوية أن
يزيد ولي عهده على أمة محمد !!!

وكذلك عادت الأيام سيرتها الأولى ، ورحع ملك عبد شمس إليهم !!
وكما تمحوت الثورة في فرنسا بعد إعلان حقوق الإنسان إلى « امبراطورية
نابليونية » تمحوت أمة الإسلام ، دين الأول ولأبد ، أمة القرآن ، حتم
وحى الله لهداية عباد الله تمحوت إلى ملك لأسرة كان لها في الجاهلية شأن !!
إن هذا الملك الذي حنح إليه معاوية فسر أعماله السابقة تفسيراً سيئاً ،
وكان يمكن تشبيه خلافه مع علي بمخلاف طلحة والزبير وغيرها مع علي ، بيد
أن الدلالة الصارخة لتليك يزيد تجعل البون شاسعاً بين معاوية
والصحابة الأحناء .

إن الخلفاء السابقين — عدا عثمان رضى الله عنه — كان لهم بنون .
فأما أبو بكر فلم يحطرباله أن يرشح ابنه لخلافة ، وأما عمر فقد نص على حرمان
ابنه ، وأما علي فقد طلب الناس إليه أن يستخلف الحسن فأبى ، وقال لا آسركم
ولا أنها كم أنتم أعلم . . .

تلك هي سنة الخلفاء الراشدين المهديين التي أمر النبي أن تعص عليها
بالنوجد ، وحذروا مما عداها فائلاً « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة
ضلالة » . . .

ذلك مع أن يزيد شاب لا يقرب في قياس أبداً مع واحد من أبناء الخلفاء
السابقين . . .

قلت في كتابي « الإسلام والمهاج الاشتراكية »
« . . . على أن الإسلام الذي أقر مبدأ التوارث الملى رفض شدة مبدأ

توارث الزعامات الروحية أو المدنية أو غيرها . فعندما اختار الله ابراهيم عليه السلام نبيا ، طلب منه هذا النبي الكريم أن تنتقل نعمة الاختيار في بنيه ، فأبى الله عليه ذلك .

« وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال : إني جاعلك للناس إماما قال : ومن ذريتي قال لا يبال عهدي الظالمين » .

وتعاليم الإسلام تقطع دابر هذا التوريث . ولا ترشح للزعامة إلا آلهما الذين يدركونها عن حذارة وكفاية .

غير أن المسلمين لهم في ذلك تقاليد جنونية في منتهى السخف ، بل أحسبها نزعة من نزعات الوثنية المخرفة تسري إلى الأمم في إبان الضعف والسقم . وليس لأمتنا أي عذر في هذا الخبط .

إن المتصوفة في بلادنا يتوارثون مشيخة الطريق ، ويكتبون أوراقا طولها عدة أروع مملوءة بالأسباب التي تصلهم إلى فلان أو فلان .

وفي مصر جمعية شرعية أسسها جد ، وورثها ابن ، وينظر رياستها حفيد وقد كان تسيخ الإسلام في تركيا يورث شيخ الإسلام المرتقب ، والقائد المظفر يلد القائد المطهر .

والشرق الإسلامي مليء بالأسر التي لا تنتمي إلى آدم أبي البشر المعروف فهو مخلوق من تراب أما هم فسلالات من عنصر آخر لا يدري كنهه ، ... لعله النار !

وتاريخ هذه الأسر يعرفه — من يطلبه — عند تمحيص الأسباب الحقيقية لتدهور الإسلام والمسلمين ، منذ بدأ طور الانحلال إلى اليوم . . . « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان عربيا من قريش ، وكانت مكانة قريش في العرب تشبه مكانة « إنجلترا » في دول « الدومنيون » أو مكانة

« روسيا » في الدول الشيوعية ، وهذه المكانة للدول الكبيرة لا تعطى أفرادها امتيازاً خاصاً ، ولكن إذا كان في هذه الجماعة الكبيرة من ترشحهم عبقريتهم أولاً للتقدم ، ويؤهلهم نبوغهم للرياسة ، فإن مكانة الشعب الذي ينتسبون إليه تعينهم على أخذ الولاية العامة . وذلك سر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن « الأئمة من قريش » ، فقد كان في قريش يومئذ أهل السبق إلى الدين والبلاء في نصرته والتضحية الرائعة في حمايته .

وإن المنصف حين يقرأ سير المهاجرين الأولين ، ويلبس الدرجة التي كانوا عليها من اليقين ويشهد أثر الصعبة من بدء الوحي ، والشركة في حمل أعباء الرسالة الضخمة مع الرسول نفسه ، ليوقن بأن هؤلاء الرجال — قبل أي مخلوق — أحق بإمامة المسلمين ، فإذا انضم إلى هذه الكفاية الشخصية عامل آخر من منزلة القبيلة في المجتمع كان معنى ذلك أن القوة المعنوية قد وجدت سلاحها المادى ، وأن الإيمان قد دعم بالسلطان وتلك هي أسس الحكم الناجح . . .

فالمقياس الأول هو الجدارة الخاصة للفرد . والعامل المساعد هو المكانة العامة للأمة .

فإذا فقد المرجح الأول لاختيار الزعيم المطلوب فلا يمكن لقريش ولا غيرها والإسلام لا يكثرث لأسباب ولا ألوان ولا أجناس وعلى المسلمين أن يبحثوا عن أكفأ رجل فيهم يضعوا بين يديه زمامهم ، غير ناظرين في تقويمه إلا إلى المبدأ الشامل الجامع المانع في كتاب الله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . أما الدعوة إلى أسرة ما ، أو قبيلة ما ، فهي العصبية التي قال فيها الرسول « مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةِ عَمِيَّةٍ ، يَدْعُو لِعَصْبِيَّةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبِيَّةً ، فَقَتَلَتْهُ جَاهِلِيَّةٌ » وترك الكف وانتخاب غيره ، لأنه ينتسب إلى فلان أو فلان ، ظلم

لصاحب الامتياز بإهدار حقه ، وظلم المحظوظ بتكليفه فوق طاقته ، وظلم للأمة ؛ إذ فوّتنا عليها الانتفاع بخيرات بنينا ، وعرضناها لشروور عجزتها وسفلتها ولم ذلك ؟ لإرضاء نزع طائشة . !

وعن واثلة بن الأسقع قلت : يا رسول الله ما العصية ؟ قال : « أن تسين قومك على الظلم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم المدافع عن عشيرته مالم يأنم » .

ونحن نحترم أسرة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ونرى في إكرامها قسطا من محبته والوفاء له . ونأسى لما أصاب هذه الأسرة النبيلة من تقطيل وتشريد على أيدي الحكام المستبدين . ومع ما نكُن من مشاعر الإجلال والتوقير لها ، فنحن لا نرضى أن نجس زعامة المسلمين فيها ولا في غيرها من الأسر الأخرى ، وذلك حكم الله ورسوله ، لا يحيص عنه .

ومن التجبى المقوت على تاريخ العالم أن نحسب خصائص الإنسان الراقى احتكاراً على جنس بعينه ، أو بيت بعينه ، وقد علم الله نبيه أن يقول : « قل : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .. » « قل : لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ » وكان النبي يقول لفاطمة أخته : « لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

ويحذر قومه أن يأتيه الناس بأعمالهم ويأتوه بأنسابهم .

والواقع أن الصالحين أنساب ، ولو تباعدت وشائجهم ، وأن اختلاف السلك يقطع الصلات ولو كانت بين الوالد وما ولد .

« رَبُّ إِنْ أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ .

قَالَ : يَا نُوحُ ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

إن الحق وحدهم هم الذين ينقلون ذكريات الماضي العيد ليثيروا بها أحقاد الناس في حاضرهم ، ومعاذ الله أن تقصد إلى شيء من هذا .

ولا أدري سر الانفعال الذي يجعل العوام عندما يعتبرون أنفسهم أبطالاً وشركاء في الروايات الدامية التي وقعت من أحيال سحيقة ، فبدلاً من أن يختاروها وقد استخلصوا منها العبرة ، إذ هم يتصورون أنفسهم أصحاب حقوق فيها ثم يعيدون الخصومة جذعة ، بعد أن يتشبع كل فريق منهم إلى ناحية يهواها . .

وقد كان العوام عندنا يستمعون قصة أبي زيد ثم يتحولون إلى معسكرين يتعصب أحدهما للزباني ، والآخر لقرنه ، فإذا حميت أحجار الزال على لسان قارئ القصة حميت الدماء في عروق المعسكرين المحتشدين المتربصين . ثم انجلى الأمر عن حراح وطمان .

لا أستطيع تسمية هذا إلا سفهاً . . وعجيب أن أمتنا غرقت في هذا السفه دهرًا . . وإلا فما شيعه وسه ؟

إن القرآن واحد والرسول واحد ، فما هذا الانقسام ؟ هب الأولين اختلف بعضهم على بعض فما معنى نقل المرقعة من الأسلاف إلى الأخلاف . إن ألف معول قصت بناء أمتنا حتى جعلته أطلالاً ، وإن نصف هذه المعاول كان بأيدينا نحن أنفسنا ، لأننا نتعلم من الماضي ما يزيدنا خيالاً وما يزيد الهوة سعة ولو أننا درسنا تاريخنا على حاله ، وفشنا في أسباب الهزائم كما يفتش القائد في ملابسات المارك السابقة ليستفيد منها فيما يستأنف من نشاط ، لكان ذلك أجدي علينا .

وما تعرضنا في هذا الكتاب لأنباء القتن الأولى إلا بالقدر الذي يعيننا على . . قتن أخرى . وقد عرفنا الزيل الكريم أن أول ما ينقص من

عرا الإسلام هو الحكم ، فإذا أردنا إعادة البناء فلا حرج علينا أن تبين مزالق الأولين حتى لا تقع فيها .

ونحن نأخذ ديننا أولاً وآخرأ من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا نبالي بمصائر من اختلفوا بعده ، فما تكلفنا شيئاً لا يدرى ؟ ولا يدرى النبي نفسه .

روى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ترد أمتي على الخوض ، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ! قالوا : يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء وليصدّنّ عني طائفة منكم ، فلا يصلون ، فأقول يا رب هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » .

وفي رواية البخاري : « بينا أنا قائم على الخوض إذا زمرة ، حتى إذا عرقهم خرج رجل بيني وبينهم ! فقال : هلم ! فقلت إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم ارتدوا على أديارهم القهقري . ثم إذا زمرة أخرى ، حتى إذا عرقهم خرج رجل بيني وبينهم ، فقال لهم : هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا على أديارهم . . . فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل العم » .

أى أن اللاحى قليل . . .

فإذا عرفنا من دستورنا الأصل أن الحكم أمانة لا يحملها إلا أكفأ مسلم وأن الزعامة لا تورث ، وأن التفكير في توريثها جر على المسلمين قدماً شراً مستطيراً ، وأنه في عصرنا هذا شغل الأغبياء القاعدين وأمل الأدعياء العاشلين تعلمنا أن نضع زمامنا حيث يحب أن يوضع ، أى في أيدي المسلمين المشهورين بالسبوع والذكاء لا بالآباء والأسماء .

ذلك وما نحن بصدده شيء آخر ، غير توريث الملك الذي أقرته الدساتير الحديثة في الشرق والغرب ، فإن هذه الدساتير فصلت بين الملك والحكم ، وجعلت الرجل الذي يلام ويثاب خاضعاً لمبدأ الاختيار المطلق الذي أوصحناه من هنا يجيء الخطر . . . :

إن الطريق التي سلكها الحكام الفجرة قديماً وحديثاً متشابهة ، لأن طبيعة الغشم التي يصدرون عنها واحدة وإن اختلفت الأعصار والأديان .
إنهم يقسمون الأمة أحزاباً ثم يضرون حزباً بحزب ويفرقونها شيعاً ثم يسلطون شيعة على أخرى .

كذلك فعل فرعون لما تأله في مصر :
« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » .
والأمة التي تقع في هذه المآسى لا تغفر بعهود طويلة من الحرية والأمان بل سرعان ما تقع فريسة غيرها ، لأن مناعتها الخاصة ذابت في أتون المظالم التي جاءت من داخلها ، أي من نفسها . . .

وانقسام الأمة شيعاً على هذا النحو يساوي في خطورته الصواعق التي تنقض من السماء أو الزلازل التي تنكد بها الأرض ، فهو مصدر لتقويض العمران وضياع العزة وهوان الشأن وقد قرن الله هذه الأخطار جميعاً في سياق واحد ، عند تأديب الناس وتهديدهم لو شردوا « قُلْ هُوَ الْقَدِيرُ عَلَى أَنْ يَنْفَعَكُمْ عَلَيْهِمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ » .

ويبدو أن المهرج الذي عاتته بلاد الإسلام جاء من الناحية الأخيرة ، فلم يخسف بالأمة من فوق أو من تحت ، وإنما حاق بها الضر من تفرق الكلمة وعلّة هذه العرقة القاتلة من فساد الحكم على أيدي المستبدين الذين انغردوا به ليلاطويلا .

ويستطيع الأخيار من المسلمين أن يرددوا في عصور شتى ما قاله الطغرائي في أيامه وهو ينال من حكامه ، وينوه بخلقهم وإقدامه ..

ما كنت أوتر أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسّقل
تقدمتنى أناس كان شأومهم وراء خطوى ، لو أمشي على مهل
ولو حشدنا الشواهد على هذا المعنى لضاق بنا المقام .

ونعتقد أننا وضعنا أيدينا على مصدر الخطر حين حصرنا الاستعمار الداخلي في دائرة حمراء توميء إلى شناعة أثره في حاضر الناس ومستقبلهم .
إنه دابة الأرض التي أكلت قوائم الملك الإسلامي فخر صريعاً
للبيدين وللمم ! .

ومن عهد النبوة حذر صاحب الرسالة أمته من هذا المصير . لقد علم أن الإسلام سينساح في الأرض لا يرده سلطان ولا تحجزه قوة ، وأن المسلمين سيظلون آماداً طويلة أقوى وأغنى أم الأرض ، ولن تهدم ملكهم إلا معاولهم هم أنفسهم حين تؤول أمورهم إلى الطعانة والبغاة .

عن ثوبان ، قال رسول الله : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة عامة ، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبجح بيضتهم . وإن ربي — تعالى — قال : يا محمد ، إذا قضيت قصاء فإيه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أي

لا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح
بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً .

أرأيت هذا الوعد الإلهي القاطع وما في ثنياه من وعيد وإنذار ، لو اجتمع
على هذه الأمة أهل الأرض أجمعون فرموا بنيانها بالزلازل التي تدك الجبال
ما استطاعوا اقتحام أسواره ، حتى إذا تحركت الأيدي الخائنة بمعاولها
— من الداخل — ثم هوت على الحصون السامقة ، بدأ الانهيار . . .
وحل العار ! . .

ونستقرئ الأحداث السابقة فتلطمنا هذه الحقائق المرة . عند ما انطلقت
جحافل التار تدمر كل شيء ، وتطوى ممالك الأرض تحت أقدامها ، وقف
السيل الممجي عند حدود المسلمين متهيّباً يدور حول نفسه كما تدور
اللبج أمام الجنادل الصلبة لا تجد منفذاً .

ولكن الجنادل الخشنّة الظاهر كان الخلفاء على الحكم قد نخرها ،
وملاً جوفها بالفجوات ، كان النزاع بين وراث الحكم من السنة والشيعة
قد أدى دوره الخبيث ، فما هي إلا جولات قصار حتى تداعت الدود ،
وسقطت بغداد في أيدي الممّج ، ونكست أعلم السنة والشيعة معاً . . .
فعلام تازعوا ؟ .

على غنيمة الحكم ، على استلاب أمة ، على المال والوجاهة ، لو كان
الحكم تكليفاً مضنياً ، وتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله ، ما اكتنفته
هذي الخمازي . . وهكذا أهلك بعض الأمة بعضاً قبل أن يهلكها
الأجانب

وما حدث عند زحف التار حدث مثله عند انسياب « أوربا » بقضها

وقضيضها على الشرق الأوسط . واجتياح الصليبيين للدويلات الإسلامية المبعثرة في رقعته . لو أن أمراء المسلمين طلقوا شهواتهم ، وأخلصوا لله قلوبهم ، ونصحوا للأمة التي امتلكوا قيادها ، لارتد الصليبيون على أعقابهم خاشئين . .

غير أنهم تنازعوا على السلطة ، تنازعوا على الرياسة ، وصدارة الجماعة وامتلاك الجماهير ، كما تتنازع الأسر القوية في قرانا المنهكة على منصب « العمدة » فكان اعوجاج السلوك في الداخل مجلبة المهرائم الساحقة التي أصابت المسلمين في الخارج . . .

وقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم في دائرة أدق مبعث الشر على جمهور الأمة فقال : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المصلين . . »

والأئمة المضلون هم الفراعنة الحاكمون ، هم الذين قال الله فيهم :
« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ .
وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمُنْقَبِحِينَ » .

أولئك كانوا — وما زالوا — القرحة الموحجة الهابطة بقوى الشعوب ، المستنزفة لدمها وحياتها ، المحطمة لكيانها وقوماتها ، بُلى الإسلام بهم ، وكُلفَ — لأمر يُعيننا فهمه — أن يحمل أقاليمهم ، فحملها ، وما زال يطوف بها الآفاق حتى سقط بها .

ويوم سقط بها ، صُدمت دوائه ، وطُردت خلافته ، وأصبح آله غناء .
فإذا أردنا أن نهض بالإسلام من جديد فلنزع عن كاهله المتعب هذه الأورار ، ولنطبقه من قيود الاستبداد والاستعباد . . .

لندع هذه الناحية المشحونة بصور النزاع الدامي بين سلالات تطلب
السيادة على أمة كارهة ، لندع العرب والمسلمين جانبا — وهذا موقفهم من الدين
الذى ورثوه — ولنلتفت إلى الناحية المقابلة حيث الروم والمشاركون لهم في
عقائدهم . والروم على عهد الرسول وخلفائه الأولين هم صميم المسيحية . ولنذكر
حديثا رواه الإمام مسلم وتعليقا عليه لداهية العرب عمرو بن العاص . وإنك
لتقرأ الحديث والتعليق فلا تدري أنعجب لصدق قائل الحديث ، أم لذكاء
صاحب التعليق .

عن المستورد القرشي قال : سمعت رسول الله يقول : « تقوم الساعة
والروم أكثر الناس » ! فقال عمرو بن العاص : أبصر ما تقول ! ! قل
المستورد : أقول سمعت من رسول الله ! قال عمرو : إن قلت ذلك إن فيهم
لخصالا أربعة ، إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة ،
وأوشكهم كرة بعد فرة ، وأجبرهم لمسكين ویتيم وضعيف . وخامسة حسنة
جميلة . . . وأمنعهم من ظلم الملوك » .

هذا الحديث لو قيل اليوم . ولم يُقَلَّ من ألف سنة وأربعمائة سنة ،
ما شابهه ذرة من باطل .

ولترسل الطرف إلى الغرب لنرى مصداق هذه النبوءة ، وحصافة التعليل
لها من رجل عرى بعيد الغور . !

إن النزعة القبلية القديمة عندنا أشعرتنا خطأ أن الشرف يأتي من مناصب
الحكم وحدها . ومن ثم دار الكفاح حولها في مرارة وقسوة . ولو كان الفرد
يدرك أنه يستطيع بلوغ القمم عن طرق أخرى غير رياسة العامة وإصدار الأوامر
لأتجهت ملكاته إلى هذه الطرق الأخرى فبرز فيها ونبغ وساد . فقه الغربيون
هذا المطلق السديد وبنوا عليه حياتهم وأقاموا حضارتهم ، فلم يصابوا من

داخلهم بهذه الآفات التي أصبنا بها في حياتنا وحضارتنا ، لقد اتجهوا إلى العلم والأدب والصناعة والتجارة والزراعة فكانوا في هذه الميادين الرحيبة ملوكاً ، واتسعت هذه الميادين لخوضها على كثرتهم قتل بينهم العدم ، ولا غرو ، فالقرية لن يكون لها إلا عمدة واحد ولكن حاجتها لا تنتهي إلى الطبيب والحاسب والكاتب والعالم والإخصائيين في شئون العمران المختلفة . فإذا سادت الجماعة فكرة أن الجاه في منصب العمدة فحسب تفانتت أسركيرة لنيه (١) أما إذا أدركت أن الشرف مقرون عرفاً وتقليداً بسائر الأعمال الأخرى توزعت عليها في غير جليلة ! وذلك سر من أسرار التفاوت بين الشرق والغرب ولا دخل فيه لدين .

آه لو انحلت هذه العقدة في مجتمعاتنا . إذن خلقت خلقاً جديداً . . . وما دامت قائمة فسوف تترادف الفتن وتتلاحق المصائب وتنفذ الجراح فما تلتئم إلا على دغل . . .

يرى عمرو العربي خلافاً بعينها في الروم فيرد إليها أسباب بقائهم برغم ما ينالهم من كوارث ، إن الفتن لا تطيش بأحلامهم لأنهم يتلمسون الخلاص منها بنفوس لا تنضح بحب السيطرة وعشق الرياسة . وقد رأينا دول أوربا تدخل في حربين طاحنتين وتستعد لخوض أخرى ، وقد فقدت في هذه الحروب ألوفاً مؤلفة من الرجال والأموال ومع هذه المغارم لم يفقدوا قدرتهم على الجلاء الطويل ، لأهمهم — كما يقول عمرو بن العاص — أسرع الناس إفاقة عند مصيبة وأوشكهم كرة بعد كرة . . .

وقد تستغرب أن يصفهم عمرو بأهم أجبر الناس لمسكين ویتیم وضعیف ، ولكن مشروعات الضمان الاجتماعي وإعانة العاطلين التي تقتبس منها اليوم سطوراً قليلة ، أليست وليدة تفكيرهم وثمره نظمهم ؟

وإن أنس لا أنسى أن وزيراً في إنجلترا يستقيل من منصبه لأن الحكومة
كلفت المرضى أن يدفعوا نصف ثمن الأسنان والمناظير والأدوات والآلات
التي تصرف في تطعيمهم . وهو يريد أن تنفرد الحكومة بحملها دونهم !
إن ذلك يتم هناك على حين أن مرضانا هنا يموتون بعاثاتهم تحت أنظار
العامة والخاصة . ولا يجدون قواداً يرق ، ولا يداً تعطى .

إن تقطع الأواصر في مجتمعاتنا يعود إلى ما يسكن قلوب الحاكين من
تأله وغطرسة وإلى حسابان الوظيفة مظهر وجاهة خاصة لا وسيلة خدمة عامة .
وسر هذا الفساد أن الدين عنوان لا موضوع له في بلاد لا تقوم على
الأخوة . بل على سيادة قلة وذلة أتباع ، وعلى تنافس بين السادة لاستدامة
هذا الوضع بحوك الدسائس وسفك الدماء . . .

وخامسة — كما يقول عمرو بن العاص — في التعليل لعظمة الروم ،
حامية حسنة جميلة . . . وأمنعهم من ظلم الملوك . . .
ألا ليت عمراً الذكي الأريب ذكر ذلك ، وهو يقيم لمعاوية ملكاً عظيماً
على أفاض الخلافة الراشدة ، إذا لحى قومه من ذل كثير . . . !

عهد العباسيين

يستحب أن نكرر القول في أصول الإسلام وشعائره لنحاكم الدولة
إليها إذا أردنا أن نسجل وفاءها له أو خروجها عليه .

وخير خلاصة للأصول التي قام عليها هذا الدين ذكرها الأستاذ الإمام

حسن البنا في :

(١) الرومانية .

- (ب) التسامى بالنفس الإنسانية .
(ح) تقرير عقيدة الجزاء .
(د) إعلان الأخوة بين الناس .
(هـ) الهوض بالرجل والمرأة جميعاً ، وإعلان التكافل والمساواة بينهما ،
وتحديد مهمة كل منهما تحديداً دقيقاً .
(و) تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة والملك والعمل والصحة والحرية
والعلم والأمن لكل فرد . وتحديد موارد الكسب .
(ز) ضبط الغريزتين عزيزة حفظ النفس ، وغريزة حفظ النوع ،
وتنظيم مطالب القم والفرج .
(ح) الشدة في محاربة الجرائم الأصلية .
(ط) تأكيد وحدة الأمة والقضاء على كل مظاهر الفرقة وأسبابها .
(ى) إلزام الأمة الجهاد في سبيل مبادئ الحق التى جاء بها هذا النظام .
(ك) اعتبار الدولة ممثلة للفكرة وقائمة على حمايتها ومسئولة عن تحقيق
أهدافها فى المجتمع الخاص وإبلاغها إلى الناس جميعاً .
ثم ذكر الإمام الشهيد أن هناك فرائض جعلها الإسلام سياجا لأصوله
وربطا للناس بها حتى يخلصوا لها ويقوموا على تحقيقها أفراداً وجماعات .
ونخلص هذه الفرائض فيما يلى .
(ا) الصلاة والذكر والتوبة والاستغفار .
(ب) الصيام والعفة والتحذير من الترف .
(ج) الزكاة والصدقة والإنفاق فى سبيل الخير .
(د) الحج والسياسة والرحلة والكشف والنظر فى ملكوت الله .
(هـ) الكسب والعمل وتحريم السؤال .

- (و) الجهاد والقتال وتجهيز المقاتلين ورعاية أهليهم ومصالحهم من بعدهم .
(ز) الأمر بالمعروف وبذل النصيحة .
(ح) النهي عن المنكر ومقاطعة مواطنه وقاعليه .
(ط) التزود بالعلم والمعرفة لكل مسلم ومسلمة في فنون الحياة المختلفة ،
كل فيما يليق به .

- (ي) حسن المعاملة وكمال الإتيصاف بالأخلاق العاضلة .
(ك) الحرص على سلامة البدن والمحافظة على الخواص .
(ل) التضامن الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم بالرعاية والطاعة معا .

في حدود هذه التعاليم المستقاة من الكتاب والسنة نتعرف قرب الدولة
أو بعدها من الإسلام .

وهذا الكتاب ليس استقراء لأعمال الحكام واحداً واحداً ووضعها في
ميزان النقد ، وإنما هو تسجيل لبعض مآخذ نشأت عن انحلال عروة الحكم ،
وأحدثت على مر الأيام فتوقاً في حقيقة الإسلام ، ونريد تجنب المسلمين غوائلها
في نهضتهم الحديثة .

ومن الخطأ البعيد أن يحسب الحكم الذي قام في هذه العهود شراً محصاً .
فالصفة الحقيق بها ما قاله النبي في نعت رجاله : « يهدون بغير سنتي ، تعرف
منهم وتنكروا » وما تنكروه على العهد العباسي ما يلي :

١ - بناء أصول الإسلام وإقامة شعائره يتطلب كفاية ممتازة . .
وقد أهدرت هذه الحقيقة وغُضَّ عنها الطرف إذ حصرت الخلافة - وهي حكم
مباشر - في بيت بني هاشم ، بعد هلاك بني أمية وتوريث الحكم - كما
علمت - ينكروه الإسلام ، ولا يصحح بطلانه أنه مقصور على قرابة رسول

الله . فإن هذه القرابة لا تزن في دين الله شيئاً ، وهي لا تشفع لمسيء ، ولا تنقص قدر محسن عرّى عنها .

٢ — ظهرت في تاريخ الإسلام خرافة الحق الإلهي للسلطين ، فبعد أن كان الخليفة الراشد يقول للناس . وليت عليكم ولست بخيركم ، جاء أبو جعفر المنصور يزعم أن العناية العليا قد تخيرته وأجداده وأحفاده ، وأن من جحد حقهم يوشك أن تحطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق .

٣ — شاع الملق وتمدح الخلفاء بالحق وبالباطل ، ابتغاء ما لديهم من أعطيات . وما لديهم هو مال المسلمين ، امتلكوه بالباطل وأنفقوه في الباطل ، ولفوا به حول أشخاصهم جيوشاً من الأتباع أسرع إلى إرضائهم من سياطهم التي في أيديهم .

دخل معن بن زائدة على الرشيد ، وقد كان وجد عليه ، فشى فقارب الخطو ، فقال له هارون : كبرت والله يا معن .

قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين .

قال : وإن فيك على ذلك لبقية .

قال : هي لك يا أمير المؤمنين

قال : وإنك لجلد .

قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين .

فرضى عنه وولاه .

وعرض كلام معن هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة فقال : — هذا ، ماترك لربه شيئاً .

٤ — أغرق الخلفاء في الترف ، وامتلأت بيوتهم بالمعازف والقيان المغنيات ، ومطارف الحرير ، وألوان الأطعمة ، وحكى الكثير عن تناولهم الأشرمة

المحرمة ، وتوسعهم المريب في المال العام ، يقذفونه كيف يشاءون على خاصتهم وحواشيهم فلم تكن حياتهم الخاصة متفقة أبداً مع ما يجب أن يكون عليه قادة الدعوات من يقظة وتجرد وتضحية بل ما يجب أن يكون عليه عامة المسلمين من توقير لحدود الله وإعزاز لأمره ونهيه ..

ونحن نذكر أن يكون في ظل حضارة إسلامية شعراء وصافون للخمر ، أوفاحشون في الغزل ، أومروجون للشذوذ الجنسي . والدرهم الذي يمنحه خليفة واحداً من هؤلاء هو كية نار تدمغ جيئنه يوم القيامة .

هـ — قام الملك الأموي على نزعة عريية عنيفة ! وقام الملك العباسي من بعده على إثارة العصبية الفارسية ، وقد اعتز بها حيناً وكاد لها حيناً آخر ، ثم استبدل بها عصبية تركية . . ذاق منها الأمرين .

وهذه النزعات جميعاً بقايا من الجاهلية التي محاهها الإسلام . . وإحيائها أماره على رقة الدين وفساد الضمائر .

والحق أن الإسلام مبادئ عامة ، ليس لها وطن معين ، وهي إن انتسبت إلى مكان ما ، فإلى السماء لا إلى الأرض ، وليس هناك جنس أحق بها من آخر ، وميزان الإسلام في تقويم الرجال معروف . أساسه صلة المرء بالله ، لا صلته بعدنان أو ساسان أو غيرها .

وقد يدخل العلم بالعربية في تقدير كفاية الرجل لتولى الحكم — ضرورة معرفته بالكتاب والسنة — ولكن هذا العلم باللغة التي اختارها الله لقرآنه وجعلها لساناً لنبيه ، لا يعني ألبة أى تعصب جنسى ، على هذا النحو الأحق الذي أشعل العداوات وقطع ما أمر الله به أن يوصل . وظل إلى سنوات قريبة مثاراً لدسائس حقيرة انتهت بتمزيق الكيان الإسلامى كله ، وذهاب ريجه .

إن نفع النار في النُّعْرَةِ العنصرية لا يلجأ إليه إلا واحد من ثلاثة !
شخص تافه يعرف من نفسه فقدان الكفاية فهو ينوء بنسبته ليستعيض
بها عما فقد من رجولته ومروءته

أو رجل فاجر أعياه الارتفاع بالناس إلى المثل الفاضلة فرتع معهم في
شهواتهم وجاراهم في أهوائهم ليجاروه فيما يهوى . .

أو رجل مغرور يحسب ، عن ضلال في القوم ، أن جنسا أفضل من جنس
ولونا أكرم من لون ، فهو يملأفه فخرا بقومه . . .

والإسلام يكذب أولئك أجمعين ! !

إن هذه الأخطاء التي ارتكبت في حق الإسلام بدأت هينة الخطر ثم
استفحل بعدُ شرها . وقد بقيت الدولة العباسية معها أول الأمر ثم أدركها
ما أدرك سابقتها فبادت

ذكر أبو جعفر المنصور دولة أمية ورجالها وسبب ضياع ملكهم ، فقال
أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي ما صنع ، وأما سليمان فكان همه بطنه
وفرجه ، ، وأما عمر فكان أعور بين عميان ، وكان رجل القوم هشام . ولم
تزل بنو أمية ضابطين لما مُهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ، ويصرفون
ما وهب الله لهم منه ، مع كسبهم معالي الأمور ورفض أدانيها ، حتى أفضى
الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من
معاصي الله — جل وعز — جهلا منهم باستدراجه ، وأما منهم لمكره ، مع
اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة ، ضعفهم عن السياسة فسابهم
الله العز والبسهم الدل ونفى عنهم النعمة ! !

وهذا الكلام الذى قاله أبو جعفر المؤسس الكبير للملك العباسى .
يقال كذلك فيه وفى أسرته ، وما أشبه هذه بتلك ، ما أشبه الليلة بالبارحة . .
وكلام المنصور يتضمن بعض الصدق لا الصدق كله . فهو تعليق ملك
داهية على سيرة ملوك مفرطين ، لاتعليق خليفة راشد على أعمال حكام ظالمين !
ويمتاز الملك العباسى عن الأموى بمجدد المعروف ونكث العهد .
قد استخدم الأمويون صنفاً من الجبابرة السفاكين ، وطأوا لهم البلاد
وأذلوا العباد ، وكافأوهم على أعمالهم بتوسيع ولاياتهم والإغداق عليهم ،
— كالحجاج وزيد — .

أما العباسيون ، فما إن استتب الأمر لهم حتى أوقعوا بالداعية الأكبر
لأسرتهم وذى اليد الطولى عليهم أبى مسلم الخراسانى ، قُتل فى حضرة
المنصور ، بأمره ومكره ، فلما برد وطرح بين يديه . قال :

زعمت أن الدين لا ينقضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
إشرب بكأس كنت تسقىها أمرت فى الخلق من العلقم
ونكبة البرامكة على يد الرشيد معروفة .

والعارسيون يرون فى هذه المأسى دلالة على نزعة العرب للاستئثار بالسلطة
ورغبتهم ألا يروا فارسياً عظيم الشأن إلى جانبهم . ووقع فى أذهان القرس أن
ملوك بنى العباس يقرّبونهم بقدر ما يستفيدون منهم ، حتى إذا استنزفوا خيرهم
نكلوا بهم ! .

والواقع أن هذه السياسة ليست طبيعة العرب ، ولا طبيعة غيرهم من الأجناس
الأخرى . . . إنها طبيعة الاستبداد السياسى ، فالفرد الحاكم بأمره يكره أن
تكون لأحد نعمة عليه ، لأنه يريد أن يمتن على الناس أجمعين ، لا أن يتطامن
إلى صبيح ذى فضل !

وقد تحول الملوك العباسيون إلى الترك بعد أن نقر القرس منهم — لأن صلتهم بالعرب واهية من قديم — بيد أن هذا التحول كان علاجاً للمرض بمرض آخر ، فلم تزد الدولة إلا اضطراباً وانقساماً .
ولو عادوا إلى دائرة الإسلام الواسعة ، حيث تذوب الأجناس والألوان لكان خيراً لهم وأشد ثباتاً .

وكيف يعودون إليه وقد قاموا وقام سوام على كره منه ؟ .

بين العلم والحكم

كان حظ الإسلام في ميدان العلم أفضل منه في ميدان الحكم ، فقد وجد في عصوره الأولى علماء كثيرين يستمسكون به ويخلصون له ، ويصورون للناس عقائده ويشرحون مبادئه ، ويورثون الأجيال المقبلة أسس الدين من كتاب وسنة .

ومن هذا التعريف الجيد للإسلام والنقل الدقيق لأصوله والنشر الواسع لحقائقه ، استمد الإسلام بقاءه ونماءه ، في بلاده نفسها ، وفيما تجاوز إليه من مشارق الأرض ومغاربها ولو وكلت حماية الإسلام لحكامه لضاع من أمد بعيد . إذ كان أكثرهم ولاية متغلبين ، لم ترشحهم كفاياتهم للمناصب التي نالوها ، بل رشحتهم القوى والأهواء ، وهيئات أن يخدم مبدأ ما باتقان وبراعة رجل ليست له فيه قدم راسخة وعرق أصيل .

وإنك لتلاحظ في ميدان العلم اختفاء النزعات العنصرية السميعة ، فشرح القرآن ، وحفظه السنن ، والباحثون في اللغة ، والمبرزون في شتى الفنون تنميتهم أجناس عديدة ، وتذوب في بيتهم هذه الفوارق فلا يحس بها أحد !
وميدان العلم لا يسبق فيه إلا كفاء ، فلا مكان فيه لتوارث الزعامات

وتخطف الرياسات ، على النحو الشائن الذى شاع فى ميدان الحكم ، ويلي المسلمون به دهرًا طويلًا وقد انحطف سواد الأمة نحو العلماء يأخذ عنهم ويقتدى بهم . وشعر الخلفاء بهذا الاتجاه الشعبى ونفسوه على الأئمة الصالحين . وأرادوا أن يستغلوه لصالحهم الخاص — شأنهم فى أحوالهم كلها — بيد أن أئمة العلم فوتوا عليهم هذا القصد . وكرهوا أن يصدر منهم أى تصرف يفهم منه الرضا باغتصاب الحكم والافتيات على جمهور المسلمين .

أراد عبد الملك بن مروان أن يزوج ولى عهده من بنت سعيد بن المسيب — وهو من أئمة السنة — ليُدْرِع بهذه المصاهرة ويكسب فضل وجاهة لدى العامة . . . !

فأبى سعيد ! ورفض ولى العهد ! وآثر بابتنه طالب علم فقيرًا ! ! ! وتحمل فى ذلك عنت الخليفة المستبد وإهائته . . .

ولما انتشر فقه أبى حنيفة وعلت فى الناس مكانته رغب إليه المنصور فى تولى القضاء — من قبل العهد العباسى الجديد — وشعر أبو حنيفة أن المراد ليس إسناد القضاء إليه ، بل انتفاع الدولة باسمه واكتسابها تأييده ! فأبى قبول المنصب المعروض ، وزج به الخليفة فى السجن حتى مات فيه ، وقيل : ضرب فيه حتى مات . . . !

وكان ولاية العهد — أيام مالك بن أنس — تؤخذ اغتصاباً ، ويستوثق الملوك لها ببيعة عاجلة تؤكد بالأيمان المغلظة ، وبالطلاق والعتاق . وأفتى مالك رضى الله عنه بالحق فى هذه المساخر فطورد الفقيه الصالح ! .

ذكر الواقدي أن مالكا كان يأتي المسجد ويشهد الصلوات والجمع والجنائز ويعود المرضى ويقضى الحقوق ، ثم ترك ذلك كله ، ثم قيل له فيه ، فقال : ليس كل إنسان يقدر أن يتكلم بعذره ، وسعى به إلى جعفر بن سليمان وإلى الرشيد وقيل له : إن مالكا لا يرى أيمان يبعثكم شيئا . . . فضربه بالسياط ومُدَّ لذلك حتى انخلع كتفاه . . . !

وكذلك يموت أبو حنيفة في سجنه مقهوراً ، ويجلد مالك حتى تنخلع عظامه . أما الشافعي فجيء به مقيداً من مكة إلى بغداد مع بضعة عشر متهماً آخر ، قتلوا كلهم لأنهم خارجون على الخلافة فلما قدم الشافعي ليلقى المصير نفسه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته ! قال : أين رحمة الله ؟ قال عندك يا أمير المؤمنين ! فعفا عنه ، ولولا هذا العفو الطارئ لضاع الشافعي وقفه ومذهبه ، ومن يدري ؟ ربما كان في أصحابه القتل من يضارعه علماً ، لولا أن عاجلته المنية من سيف غاشم عنيد .

إن طبيعة الإسلام فرضت نفسها على الأمة فجعلتها تقبل على العلم وتوقر العلماء ، وفرضت نفسها على الدولة فجعلتها تحذر جانب الأمة ، وتحاول استرضاءهم بالرغبة أو استكراهم بالرهبة ، ولم يستطع الاستبداد السياسي أن يضع العوائق في مجرى الثقافة نفسها فاستبحرت وضربت بسهم وافر في كل ناحية .

إلا أن أثر الاستبداد ظهر في تثبيط الهمم عن علاج المسائل المتعلقة بأصل الحكم . ومن ثم اشتغل المسلمون بألوان من الترف العقلي وعكفوا على

البحوث الفلسفية والنظرية والفرعية مما لا يضير الأحكام المجرمين أن تؤلف فيه المجلدات الضخام .

واكتفى العلماء بدراسة آراء الإسلام في الحكم والمال ، وتلاوة الآيات والأحاديث التي تكشف عن خلل الأوضاع القائمة . . .

ويبدو أن مصارع الخارجين على الدولة وذهب محاولاتهم دون جدوى جعل جمهور العلماء يقبل « عملياً » الأمر الواقع ويرفض « نظرياً » الاعتراف به فهو يقاطع الأحكام ويجالس العامة ، ويقرر وجهة نظر الدين في الفساد والمفسدين ، ويؤلف عصبيات شعبية للكشف عن الحق وحمايته ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من الولاة المتغلبين ، أى أن الدين كان في صف المعارضة أما الحكم نفسه فقد سار على سياسة أخرى رسمتها طبيعة الاستبداد بالعباد والبلاد . . . !

وقد ظلت العجوة بين العلم والحكم قائمة إلى أمد طويل ، وكان العلماء يجتهدون في إفراغ ذمتهم حيال الأمانة التي أقيت عليهم ، أمانة الإبانة عن حقيقة الدين والنصح للحكام والمحكومين . وجار العنت على كثير منهم فهلك ، وخلا الجول للحكام المستبدين فضلوا وأضلوا . .

ومع ذلك فإن طبيعة الإسلام تألفت في أحلك العصور ، ووجه الولاة الظلمة بمن يعترض طريقهم ، بعد أن رسخ في الاستبداد قدمهم ، وكرت الأيام والليالي على عهودهم فأضفت عليها مهابة وقراراً ، ولن سرد الشواهد لذلك من عصور ازدهار العلم ، ونبوغ الأئمة في الفقه والرواية والتفسير وشتى آفاق الشريعة ، فإن للمقام يطول ولا تنقضي آياتهم الرائعة ، وإخلاصهم العميق ، وحهم المسكين لله ورسوله ، وإيثارهم الآخرة واستكبارهم على الدنيا .

بل سنتخير الشواهد من عصر المماليك ! عندما أرخى الليل سدوله ،
وتقسمت الأمة الكبيرة أطماع الأمراء التتكالين على سيادتها ، وأحاطت
بالدولة التركية المتداعية أطماع الروس والإنجليز والطلين وبداء لأعداء الإسلام
أن الإسلام قد جف عوده ، وذهبت نضارته ، وأضحى هشيأ تذروه الرياح .
نم سنتخير الشواهد من هذا العصر . . .

يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد : إن بعض المتكلمين من الوعاظ
الذين كانوا يتعاقبون في تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين ، يعقدون مجالسهم
في المساجد فيلقون فيها دروساً في معاني العدل وواجبات الحكام وحقوق
المحكومين ، ويدرسون في خلال تلك الدروس نقداً للحكام لا يخشون
منهم غضباً ولا يتوجسون خوفاً ، وكان بعض الحكام يضيق بنقدم ولكهم
كانوا في أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يُقيدون ولا يعاقبون على
ما يصدر عنهم من النقد ولعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ
« الحنفى » الذى كان يعاصر على بك الكبير .

كان زاهداً ورعاً كريماً كثير البذل للفقراء ، وكان لا يتردد في إبداء
نصحه صريحاً قوياً ، وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته .

وكان الشيخ الحنفى عضواً في ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع
جماعة من إخوانه تمثيلاً رائعاً حتى كان على بك الكبير على شدته وقوة
ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته وكان في مناقشاته لا يتردد أن يهدد
الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته ، فقد
وقف مرة يناقش في ضرورة إرسال حملة حرية لإخضاع بعض الأمراء
الخارجين في الصعيد ، وكان رأيه أن تلك الحملات الحرية تضر بالناس
وتعطل مصلحتهم ، فلم يتردد في آخر خطبته القومية أن يصيح قائلاً :

والله لن نسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً .
ولما توفي الشيخ الحفنى حل محله فى زعامة النقد واعظ آخر يسمى
ابن النقيب .

كان أهل مصر يتعنتونه بالحدث ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال
الدولة . لم يمتنع عن نقد ما يراه فيهم وفى أحكامهم من العيوب ، وكان نقده
أحياناً يبلغ حد المرارة والعنف ولكن صدره هؤلاء الحكام لم يضق به مع
أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية فلم يسمحوا له بالبقاء طويلاً فيها لما عرف عنه من
الصراحة فى النقد .

سأله الأمير محمد بك أبو الذهب كيف وجد عاصمة الخلافة عند زيارته لها ؟
فكان جوابه على ذلك :

— لم يبق باسطنبول خير ولا بمصر كذلك خير فلا يكرم بها
إلا شرار الخلق .

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر حليل ، كان ينهج نهجه مع
شئ من الاعتدال وهو الشيخ على الصعيدى وقد عاصر ملكى مصر العظمين
على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب .

وكان كثير الشفاعة عندهما لمصالح الناس . وكان الناس يلجأون إليه إذا
مسهم ما يشكون منه فيكتب شكواهم فى ثبت ويدخل بها على الأمير فلا يخالفه
فى شئ ولا ينفص عنه

وكان يقول لهما أى الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد :

— لا تضحروا ، أسف على شئ يفوتك غير حق فى الدنيا فإن الدنيا
قافية وكلما يموت ويذهب المبدأ يسأل الله عن تأخر ما فى بصحك وهانحن أولاء
قد نصحبك وحنا من المدة

فإذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال :

— اتق النار وعذاب جهنم .

ثم يمسك بيده ويقول له :

— أنا خائف على هذه اليد من النار .

وفي الأمثلة التي ذكرناها نلمس شعور العلماء بما عليهم من تبعات النصح للحاكم والرعاية للعامة . وكثيراً ما تسوق الأقدار الطيبة أمراء أخياراً على الأقاليم التي تتكون منها دولة الخلافة العظمى ، يصيخون لتوجيهات العلماء ، ويسترشدون بأرائهم السديدة .

وهذه العوامل — كما قلنا — خففت من فساد الأصل الذي قام عليه الحكم ، ولكنها لا تغير من المصير الفاجع الذي يصيب الدولة كلها عند اضطراب قيادتها العامة .

فالركاب قد ينظمون أنفسهم داخل السيارة أو الطائرة تنظيماً حسناً ، بيد أن هذا التنظيم لا جدوى له إذا أصيب السائق بنحبال فهورى في منحدر ، وأودى بحياة الجميع !

وقد كانت الخلافة العظمى مصابة بأفات قاتلة ، وعلى كثرة الجهود التي بذلها العلماء المحليون وصغار الرؤساء الطيبون ، فقد كانت الدولة تهوى من منحدر إلى آخر ، وتندرج على عجل . . . إلى السفوح !

ومما جعل لنصح العلماء وقعا حسناً ، إحساس الحكام بصدق نيتهم وسلامة طويتهم ونزاهة مقصدهم . واسمع لعمر بن عبيد شيخ المعتزلة يعظ المنصور يقول له :

إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذي في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض يوم لا ليلة بعده !! والحق أن هؤلاء الخلفاء يحسنون الاستماع إلى غاية قرينة تُحَدِّثُ بأمنهم على ملكهم ، واطمئنأهم إلى بقائه لهم ولأعقابهم . فإذا توجسوا خيفة وأحسوا بذرة من الانتفاض والتمرد طار إيمانهم من قلوبهم ، ولم تنضبط أعمالهم بقانون يحكمها . . . !!

السياسة التي لا دين لها . . . !!

قال المؤرخون : كان يعاصر « المهدي » في غرب أوروبا « شارلمان » فصادقه « المهدي » واستمرت المودة بين الدولتين إلى زمن « الرشيد » وذلك لأن العباسيين كانوا يريدون القضاء على الدولة الأموية بالأندلس ويمجدون في « شارلمان » أكبر مساعد على الوصول إلى غرضهم هذا . . . أما الدولة الرومانية الشرقية فكان العداء مستحكما بين المهدي وبينها بسبب النزاع القديم بين الطرفين ، ثم بسبب مصادقة الخليفة « لشارلمان » وهو أكبر منافس لقيصرة الدولة الرومانية الشرقية ، فقامت الحرب بينهما برا وبحرا وانتهى الأمر بأن تقدم المهدي هو وابنه هرون وسارا إلى البوسفور فصالحته الملكة « إيريني » القائمة بالأمر إذ ذاك على دفع جزية سنوية .

هنا يجب أن يقف المؤرخ المسلم ليفكر مليا في بواعث الصلح والخصام بين الخليفة « المهدي » الذي كان ينادى بابن عم رسول الله وبين الملك « شارلمان » زعيم المسيحيين في غرب أوروبا . . .

إن حقد الخليفة العباسي على الملك الأموي الذي انبت شرقا وامتد غربا جعله ينسى الفوارق بينه وبين شارلمان ويذكر شيئا واحدا وهو ضرورة القضاء

على الملك الإسلامى فى الأندلس ولو استعان على ذلك بالصليبيين .

ليست هذه سياسة يملها دين ولكنها سياسة لادين لها ، أملت بها أهواء الاستبداد فأعمت صاحبها عن طريق الرشاد .

فإذا طويت هذه الصحيفة من تاريخ القرن الثانى للهجرة ، وبدأت صحيفة أخرى من تاريخ مصر فى العصور الوسطى على أخريات الدولة الفاطمية وجدت من تنازع الوزراء العظام للسلطة هذه الصورة الكئيبة .

قال المؤرخون : فرشاور إلى نور الدين واستنجد به وتعهد أن يقوم بجميع تكاليف الحملة اللازمة لعزل ضرغام من الوزارة ويدفع ثلث إيراد مصر جزية سنوية لنور الدين .

أما ضرغام فقد استعان بأمورى الصليبي ملك بيت المقدس ، فظهر طمع كل من الصليبيين والسلاجقة فى الاستيلاء على مصر .

وقد أرسل نور الدين حملة هزمت ضرغام وحلفاءه من الصليبيين ، ثم قتل ضرغام وانفرد شاور بالوزارة ، ولكنه لم يوف نور الدين بالعهود التى قطعها على نفسه ، بل على العكس عقد اتفاقاً سرياً مع الصليبيين ، فلما علم بذلك نور الدين لم يجد بداً من غزو مصر .

ما هذا ؟ ملوك مسلمون يحالفون ملوكاً نصارى ، ووزراء مسلمون يحالفون حكاماً نصارى ! ولم هذا التحالف ؟ لأن هؤلاء الملوك والوزراء المسلمين يناوئون أو يناوئهم على مناصبهم المقدسة رجال آخرون على دينهم (١) الذى هو الإسلام ..

الحق يقال ، إن لسياسة الحكم وأسلوب المحافظة عليه لمن ظفروا به ،

دينا آخر ، صارح الوحى ، صارم البطش ، يؤول القرآن على هواه ، وينزل السنة على مشتهاه ، ويحب ويبغض ، ويعفو وينتقم ، لا لله ورسوله . . بل لأثرته وعنجهيته فحسب . وتلك أولى بركات الاستبداد السياسى ، منذ أفلت الأمر من رأى الأمة . . إلى رأى أفراد .

ولقد هوت دولة الإسلام فى الأندلس فما وجدت من مسلمى المشرق عوناً ، لأن القطيعة بين الأسر الحاكمة أوهت الأواصر بين الفريقين .

ويبقى على العقلاء من المؤمنين أن يسألوا أنفسهم ، وما صلة الإسلام بنزاع بدأ فى الجاهلية الأولى مثلاً بين بنى هاشم وعبد شمس ، ولماذا يُقحمُ المسلمون عدة قرون فيه ، وما لهذه الأسر تزججنا بشئوننا النافهة ، وما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً .

ويبقى على عقلاء المؤمنين مرة أخرى أن يسألوا أنفسهم : متى تستيقظ الأمة إلى مصلحتها المجردة ، وإلى مصلحة الإسلام المحضة ، بعيداً عن هذه الأوهام التى فرضت نفسها ليلاً طويلاً .

إن على العلماء اليوم واجباً ثقيلاً ، وهماً طويلاً ، ولن يبق فساد الحكم يوماً أو بعض يوم إذا نهض الدعاة إلى الله بأعباء الفريضة المنوطة بهم فأيقظوا النيام . . ولفتمهم إلى الأصنام .

من العرب . . . إلى الترك

ولى الأتراك أمور المسلمين بعد انهيار الخلافة العباسية وسقوط عاصمتها بغداد فى أيدي التتار الفاتحين .

والأتراك كأي جنس من البشر له خصائصه التى ينفرد بها ، وتتوازن

فيها مزاياه وعيوبه ، وهم كالعرب والفرس وغيرهم ممن دخل في الإسلام فاستقام عليه حيناً وشرد حيناً آخر .

ولا نحب القول بأن جنساً بعينه أحسن إلى الإسلام وبنسباً بعينه أساء إليه ، فإن هذا (أولاً) زعم لا يثبت على التمهيص (وثانياً) فتح لباب المناقرة والمفاخرة ، ثم هو جنوح إلى مذهب تفاضل الألوان والسلالات ، وهو كلام فارغ ! إتنى أعرف في الهنود والزنوج رجالاً هم من آيات الله في اليقين والذكاء وإتنى — كعربي — أحسن السرور والجم عند لقيامهم في ظل الأخوة التي ربط الإسلام بها قلوبنا .

ولما كانوا يعرفون اللغة العربية جيداً فقد استمعت إلى أحاديثهم وأفدت أعظم الإفادة من علمهم وحكمتهم .

ولا أنكر أن الأجناس التي دخلت في هذا الدين قد وقعت بينها حوادث محزنة ، غير أن وزر هذه الحوادث يقع على أفراد مغرضين ، أو على أحزاب من المتطلعين والمتصدين ، ومن الافتراء على الواقع نسبة هذه الحوادث إلى عوج شائع في عامة العرب أو الفرس أو الترك أو الزنج أو الهند أو البربر أو غيرهم ولو قطعنا دابر هذه الطوائف المناققة في الإسلام لصفا الجو بين جماهيره النفيرة ، وعاشوا بنعمة الله إخواناً .

تلقى الأتراك السلاجقة والعثمانيون راية الإسلام بقوة ، إلا أن عاطفة هؤلاء القوم نحو الإسلام كانت أقوى وأشد من فقههم فيه ، وحماستهم له أشد من تفهمهم لروحه ، وتشبعهم ببواعثه وأهدافه

وقد بدأوا حكمهم وأوربا تسودها حالة منكرة من الجهل القاضح بالإسلام والحقد العميق على أهله ، وتكتسحها شرقاً وغرباً خيالات غريبة ، وروايات

مختلفة مكذوبة عن الإسلام وشعائره ، وعن محمد وأصحابه ، كان هناك نحو
عشرين كتاباً يشرف بآنا رومة وقساوسته وملوك المسيحية على نشرها في كل
فج تتضمن من الأقاصيص المخترعة والإفك الصراح ما يندهش المرء لمطالعة
وإليك مثلاً^(١) واحداً من هذه الأساطير التي كانت تهيم على عقول
الأوربيين في العصور الوسطى .

ألف « قنسان دى بوفى » المتوفى سنة ١٢٦٤ كتاباً اسمه المرآة التاريخية
بناء عن أمر صدر إليه من الملك سان لويس . وقد خصص الفصل الرابع
والعشرين من الجزء الرابع لتاريخ محمد ، وهذه هي الموضوعات التي نلخص فيها
هذا الكاتب سيرة الرسول :

١ — بدعة التوحيد والبرنيس (يعنى السيدة خديجة) ! وهنا تناول
الكاتب قصة الحمامة التي تعلمت أن تقف على كتف محمد !! لتلتقط الحب
من أذنه ... !! وقصة الثور الذى استأنس

٢ — سرقات محمد وخداعه وفظائله . وهنا يذكر الكاتب أن النبي
كان يقتل ويخنق كل من رآه (كذا) ...

وإلى هذا الكلام يرجع ماشاع بين الغربيين أن محمداً كان نبياً فتاكاً .
٣ — قذارة شريعة محمد وخرافتها ، وكيف وجد القرآن . وهنا يذكر
المؤلف حكاية راهب اسمه « سرجه » ! وينسب إليه أنه علم النبيّ المهدى
القديم والجديد .

٤ — حق أتباعه وتعصبهم ، وصيام المسلمين الكاذب وغسلهم ، والحج
إلى مكة ، والأصنام التي أبادها شارلمان والتي أقامها ... !

(١) « الإسلام سوانح وخواطر » للسكونت هنرى دى كاسترى ترجمة فتحى زغلول .

ولا شك أن القارىء المسلم سيفقر فاه دهشة لهذه السخافات الشائنة وسيضرب كفاً على كف لهذه الجراءة الوقحة في الافتراء والتضليل ، ولن يغنى له عجب إذا علم أن هذه الثقافة الأوربية في الإسلام كانت تمدها عشرات الرسائل على مر القرون ، وأنها كانت الغذاء المنظم الدائب على إثارة السخائم التي تمخضت عن الحروب الصليبية .

أين كان المسلمون في هذه الأيام ؟ وأين حكومتهم التي يقع على عاتقها تعريف الناس بالإسلام ؟ وإعطاء القريب والبعيد صورة صحيحة له ؟ ولماذا يترك الجمهور في « أوزبا » فريسة مخرفين من هذا الطراز الدنيء يكذبون على الله ورسوله ، ويشيعون الأوهام الباطلة عن دينه وتعاليمه ؟ إن الجواب الصريح على هذه الأسئلة يدمغ حكومات هذه الأزمان .

اشتغل المترفون من الخلفاء والأمراء بمتعهم الخاصة ، يتنازعون السلطان بينهم وينسون أعباء الدولة والدعوة معاً .

وكان المسيحيون الوافدون للحج إلى بيت المقدس يصعدون ويردون فما يتصل بهم أحد ليتعرف ما لديهم . وتلك سماحة من العرب تذكر لهم ! فلما جاء الترك أغلقوا الأبواب في وجه الحجاج المسيحيين ، ومن ثم انقطعت الصلة تماماً بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، واشتعلت الحروب الصليبية المعروفة .

وانتصر المسلمون بعد مراحل طوال ونضال أي نضال .

واستأنف الإسلام سيره ، وما هي إلا أيام حتى كان الأتراك يقودون قافلته ويمسكون بزمامها ، وورثت الدولة العثمانية ملك العباسيين ، وبعد أن كان المسلمون ميراثاً لبنى أمية ثم لبنى هاشم أصبحوا ميراثاً لبنى عثمان !

وقد امتاز الأتراك أول عهدهم بالصفات التي امتاز بها العرب الأولون من حماسة للعقيدة وعزوف عن اللهو وبعد عن الميوعة والترف وإقبال على الله ورغبة فيما عنده . وهذا سر غلبهم وتفوقهم على الدويلات الإسلامية الأخرى وهو كذلك سر النجاح العسكري الباهر الذي أحرزوه في شرق أوربا .

إلا أن العرب كانوا أقدر على نشر الإسلام بالدعوة والترية منهم ، وصلتهم بلغة القرآن والسنة تعطيهم في ذلك فضل مقدرة لا يجوز نكرانها .

ولو تعاون الجنسان على البر والتقوى لاستفاد كلاهما من خصائص الآخر ، وانتفع الإسلام بهم أجمعين . لكن المؤسف أن العنصر الذي ينبت منه الحكم تغريه القوة بالبطش ، وبقاء الحكم فيه إلى الأبد يضفي عليه مهابة لا يستحقها ويلحق بالآخرين معرة يستفكفون من وصمتها وقد جر هذا الوضع الباطل إلى باطل آخر .. ظلت بذرته تنمو مع الزمن !

وخصوصاً أن توارث الخلافة في بيت واحد بدأ يؤتى ثماره الفجة ، فتولى الملك رجال سفهاء ، وتطرق الخبال إلى الدماغ الذي يدير شئون الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ! فترج الجسم كله على شفاهاوية .. وكان هذا يحدث في بلادنا بينما كانت دول أوربا تلم شغنها وتنظم شئونها وتهتز بنهضة علمية بعيدة المدى .

قال المؤرخون في أسباب^(١) انهيار الدولة العثمانية .

« بعد أن كان ولي العهد يتدرب من صغره على حكم الولايات وقيادة الجيوش أصبح يحبس في قصر بالعاصمة ، ويمنع من الاتصال بأصدقائه ، ويث حوله الجواسيس ، ولا يبرح مكانه إلا ليعتلى عرش السلطنة وهو لا يعلم من أمورها شيئاً .

(١) معالم تاريخ أوربا الحديث ، لمحمد رفعت بك .

ولا ينتظر من سلطان قضى شبابه في قصر - هو إلى السجن أقرب - أن يتصرف على الإدارة وينظر في مصالح الرعية ويقود الجيش كما كان يفعل أسلافه .

بل كانت النتيجة المنطقية أن أكثر السلاطين الذين جاءوا بعد سليمان القانوني كانوا يقتلون إخوتهم بمجرد اعتلائهم العرش ، وكانوا يقضون حياتهم في القصور بين حاشية كبيرة العدد من الجواري والخصيان عاكفين على ملذاتهم من لهو وشراب ، تاركين إدارة الشئون في يد الحظيَّة التي تتسلط على أفكارهم .

ومن أمثلة ذلك أن جارية من أهل البندقية اتخذها « مراد » الثالث ضمن حريمه ، وارتقت حتى صارت السلطانة ، وما لبثت حتى أصبحت المسيطرة على سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، وبقيت السلطة في يدها ثمانية وعشرين عاماً تعين من تشاء للصدارة العظمى وغيرها من الوظائف الكبرى .

وانتقلت السلطة بعدها إلى غيرها من ساء القصر فبقين يدرن شئون الدولة فوق الثمانين عاماً .

ومما يدل على مقدار الفساد في عهد سيادة النساء أن الوزير محمد كابريلي حين أتيت له فرصة الإصلاح سنة ١٦٥٦ في عهد السلطان محمد الرابع ، اضطر إلى إعدام عدد كثير من الموظفين ومن الجند الثائرين ؟ ! .

« وبهذا استتب النظام نوعاً . . . » .

واستتاب النظام كمسكن مؤقت لا يذهب العلة الدفينة ، ولا يمحو آثارها المتجددة

وهب المسلمين دعوا على منارهم في البر والبحر لحاكم تدبر أمره امرأة ،

أكان ذلك يغير سنة الله فيهم ؟ إن نبيهم هو القاتل : إذا كان أمركم إلى نساكم
قبطن الأرض خير لكم من ظهرها . فكيف إذا كان أمرهم إلى فئة من
الحظيات قرنا من الزمان ؟ ومتى يحدث هذا في طلائع نهضة عقلية لم يشهد
العالم من بدء الخلق أروع منها وأشمل ، ولدت ونمت واكتملت بعيدا عن
بلاد الإسلام التي يحكمها الاستبداد الأعشى ، ويغل حريتها ويقظتها عبيد
البطون والفروج . . . !

إن العامة من الترك أنفسهم ، ومن العرب والفرس ، ضاقوا بهذا اللون
من الحكم وحاولوا تربيته ليسير الزمن الوثاب . . .
بيد أن الجهود ضاعت سدى . .

واستغل أعداء الإسلام هذا الاضطراب السائد في أرجائه الواسعة
فاتصلت انجلترا بالعرب تغريهم بالانتفاض على الترك وهم في حرب حياة
أو موت ، وما ثمن هذا الانتفاض ؟ إقامة ملك هاشمي بدل الملك العثماني !!
ولو أخذ المشروع المقترح طريقه إلى الحياة لاستحال إلى خلافة تضارع
الخلافة العباسية أو العثمانية في عصور الانحلال والظلام .

ولو حدث هذا ما كان حلا لمشاكلنا على أنه كان من المستحيل أن
يحدث ، وما كان الإنجليز يسمحوا به . فالصليبيون الجدد لا يتصور في
سياستهم أن يقيموا دولة فيها أية إثارة على إسلام ، وهم الذين ورثوا في دمائهم
بغض الإسلام وأهله . . . ولكن نزوة السيادة عند السلطان حسين ملك
العرب المقترح جعلته يحالف الإنكليز ضد الترك في انتظار هذا الوم الموصول

تصفو الحياة لجاهل أو عاقل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

وقد خان الرجل بذلك دينه وأمته . واجملت فتنة الأسرة المستولية على
الخلافة من الترك ، والأسرة الطامعة فيها من العرب .
عن كفر تركيا بالخلافة ، وبالإسلام ، وبالعرب ، ولغة العرب . !
وعن سقوط بلاد العرب نفسها في أيدي الإنجليز والفرنسيين . . .
ثم . . . عن طرد العرب بعد ذلك من فلسطين وإعطائها لليهود !!
تلك هي بركات الاستبداد السياسى القائم على تجاهل الأمة ودينها ،
وعلى تمليك مقدراتها ومصالحها لأيدي رجال معينين ، ليسوا مثلنا من ماء
وطين . . .

خاتمة

ليعذرني القارئ إذا وجد في سرد هذه العبر من ماضينا البعيد والقريب
مرارة مشبوبة وغضبة مكشوفة ، وإذا أحس قسوتي في إحصاء السيئات
وتضخيم شاعتها أحياناً .

فأنا في هذا الكتاب أعاتب قومي ، والمعائب يذكر ما يؤله لا تنديداً به
ولكن استنكاراً للبيئة من ليس لها أهلاً ، وإزعاجاً للذاهل حتى يستفيق
ولما كنت شديد الإحساس بالمثل العليا التي جاء بها الإسلام ، فإنني كذلك
شديد الأسى للواقع السوء الذي وصلنا إليه .

وقد حشدت أخطاء قرون متطاولة في صحائف متجاورة ، وطلبت من
مسلمى اليوم أن يفكروا فيها ويتعظوا بها ويقنعوا عنها . وليس هذا بدءاً
في التذكير والاعتبار فالله سبحانه وتعالى خاطب اليهود في كتابه مذكراً بإيام
بنعم وطم أسلفها لأبائهم من آلاف السنين . . ولم هذا الأسلوب ؟ .
لأنه وجد في قلوب الأبناء النيات نفسها التي كانت في قلوب أسلافهم ،
ووجد على أيديهم الآثام نفسها التي كان آباؤهم يرتكبون . .

وقد غلغت البصر في أفكار الكثيرين وأعمالهم فرأيتهم يقفون والفلك
دائر ، ورأيتهم كالمندحرج في أسفل السلم لا يعرف شيئاً عن المزالق التي هبطت
به إلى الحضيض بعد أن قلبته رأساً على عقب ، بل رأيت بعضهم يحسب
الإسلام ما يطبق في الحجاز واليمن . . وآخرون يريدون ابتداع أشكال
للشورى — التي جاء الإسلام بها — دون دراسة لتجارب البشر في الشرق
والغرب عدة قرون ، بل دون اعتراف بهذه التجارب الخطيرة .

إن الإسلام صنع في بلاده حدائق فيحاء شبيهة المنظر والمتنفس فجاء الاستبداد السياسى أشبه ما يكون بدخان من البترول المحترق ، ترسله آلة خربة ملأت الجو نفيومه ، وركت الأنوف برائحته .
وما يبقى على هذه الآلة الفاسدة رجل يريد بقاء الناس في الإسلام .

لقد مرَّ على مبعث النبيِّ أربعة عشر قرناً ، أستطيع الجزم بأن مستوى المسلمين العقلى والمادى في عشرة منها كان أعلى من مستوى غيرهم في أوروبا وهذا يرجع إلى طبيعة الدين ، لا إلى طبيعة الحاكمين
إن طبيعة الدين أكست أهله مناعة ضد أمراض شتى من عوادي الاستبداد ولكن الاستبداد تضاعف حتى تحول إلى وباء جارف ، فأخذ المسلمون يتساقطون ، وأخذ بناؤهم يتداعى لبنة لبنة . . .
واليوم لا توجد خلافة ، لا صحیحة ولا مزورة عن النبي صلى الله عليه وسلم
واليوم لا توجد دولة واحدة ترجع في أصول الحكم وفروعه إلى الإسلام .

عادت الجاهلية إلى الدنيا مرة أخرى ، وأظلمت الأرض بعد إشراق ، وسيطر الغرب على ميراثنا الصحم ، وسواها في رقه نعتاد البقر ومن لا دين لهم ، بل جعلنا دونهم . . .
وبقى علينا أن نختار بين الخنوع الممیت في كنفه ، أو الرجعة العزیزة إلى الله وإلى دنه النظيف من لوثات المستبدین والكبراء . . .

دعت طبول الإسلام . . .

هل للغرب أهداف نبيلة يسعى لتحقيقها في العالم ؟ وهل في حضارته السائدة الآن من النفع للناس ما يجعل الإبقاء عليها ضرورة إنسانية ؟

لقد استطاع الغربيون في ظروف مواتية أن يفرضوا سيطرتهم على أرجاء الدنيا وكنا نحن المسلمين بين أجيال البشر التي دانت لهم وانجرفت في تيارهم ، بل قد نكون أشد الناس ابتلاء عما طلع الغرب به على الناس من أفكار وأهواء فماذا وجدنا ؟ لقد وجدنا أن صلة الغرب بنا وبغيرنا تتحكم فيها جملة من غرائز السوء ، وأن الغربيين في علاقتهم بالشرق وأهله يمثلون أحط أنواع النذالة والرجس ، ولا يصدرون في تصرفاتهم إلا عن أثره باغية وحقد مشبوب . .

والاستعمار الذي تقتل في حباله الآن أوروبا وأمريكا لكيا تضاعف قيودنا وتهدم حدودنا ، هو في ظاهره وباطنه مزيج من إلحاد فاجر وصهيونية طامعة وصليلية عمياء ، وهو يسعى بكل ما لديه من قوة :

- ١ — لإفقار الشعوب المغلوبة على أمرها ، ونهب خيراتها منها ، واختلاق أساليب مالية معقدة لجعل البلاد المهزومة عالة أبدا على الدول القوية التي هزمتها فبها زاد إنتاجها فهو لمصلحة الغاصب ومهما كثر سكانها فهم لخدمته وحده .
- ٢ — حرمان الأمم من حقوقها في الحرية والكرامة والعلم والارتقاء وإبقائها معنويًا تعاني شعور الضعة والتأخر . والدول الغربية تتعاون في مناطق نفوذها على وأد حركات الاستقلال ومطاردة المجاهدين بأقسى الوسائل . وما من خطوة ظهرت بها هذه الأمم المكافحة إلى الأمام إلا دفعت ثمنها مضاعفًا من دمها ومالها . وما تستطيع البقاء فيها ومتاعمة الخطو منها إلا على مضض من المحتلين واعد مقاومة عنيفة .

٢ — أوروبا وأمريكا معاً يمتنان الإسلام وأهله ولغته أشد المقت ، وقد تظهر الإلحاد مع الصهيونية وحالقتها الصليبية الغربية على الكيد لهذا الدين وأبنائه في كل مكان .

ومن ثم رأينا الحبشة تنال استقلالها في صمت لأن القلة المسيحية فيها تتحكم في الكثرة المسلمة . ورأت هيئة الأمم ضم أريتريا المسلمة إلى الحبشة وحرمتها استقلالها لهذا المعنى الخبيث .

وتركيا لا تنال العون الأمريكي إلا لأنها أعلنت كفرها بالإسلام ومصر تقع بين شقي الرحى لأنها ما زالت بعد وفية لدينها !

والتعبئة العامة ضد الإسلام معلنة في الغرب من بدء الغزو الاستعماري إلى اليوم ولا تزيدها الأيام إلا امتداداً وضراماً .

بعد ما سقناه لك يمكنك أن تقرأ هذه المقتطفات لتبين كيف ينظرون إلينا .

كتبت مجلة « باري — برس » مقالا بعنوان : « بعد بتول السويس يهدد هلال الإسلام أيضاً قواعد الأطنطى » ، وقالت إنهم يشبهون الإسلام بطبل كبير لا يكاد يذقه أحد ، يدوى صوته في كل مكان ، وقد ابتداء « مصدق » فدق الطبل فتبعه الحاس باشا ثم الحبيب بورقيبة الزعيم التونسي ، وكذلك علال الفاسي الزعيم المراكشي .

وتقول الصحيفة إن الدفاع عن البحر الأبيض من قساة السويس إلى جبل طارق ضروري تماماً ، ولكن إذا نحن تحدثنا إلى « الإسلام » وقلنا له : اصبر قليلاً ، أأنت ترى أن أراضيك وترولك لا غنى لنا عنها للدفاع ضد العدو المشترك ؟ . يرد علينا قائلاً : احرصوا يا بني من القوة بحيث أملك للدفاع عن نفسي ، وعود تقول له سلمين : ماذا في استطاعتكم أن تفعلوا دون الاستعانة بمهندسينا وخبرائنا وأطبائنا ؟ . . وإسكم ستعودون إلى سباتكم من جديد

وتستغرقون في فوضى العصور الوسطى ، وفي الفقر والمرض .
ولكن المسلمين يحترقون آلاتنا وأفكارنا وتعاليمنا الصحية وقانوننا
وطائراتنا والأسانسيرات التي نبعتها لهم ، إننا نفكر في مصالحهم ، أما هم فلا ...
ذلك أن الحمى تصيبهم ...

إن أوروبا لا ينبغي لها أن تتحدث مع العالم العربي إلا بلغة واحدة
هي لغة القوة »

إن أوروبا لم تحدثنا منذ عرفتنا إلا بلغة القوة ، فاقترح الصحفي الفرنسي
لا موضع له . ولو كانت لفرنسا أو إنجلترا يد أسدتها لنا لشكرنا لها صنيعها أما
والدولتان الملعونتان سر ما حاق بالمسلمين من خراب فلن نكن لها إلا
كل بغضاء .

ومن هذا الذي يسمونه عدواً مشتركاً ؟ إن روسيا كانت حليفة إنجلترا
وفرنسا في حروبها السابقة . فإذا وقعت الجفوة بينهما وتوقع القتال بين مستعمر
ومستعمر ، قيل للأمم المستعمرة : هذا عدو مشترك ؟ لماذا يطلب من الضحايا
أن تنصر جزاراً على جزار ، وهي تتمنى لو استراحت من الفريقين ؟ .

أما العصور الوسطى التي يتحدث الصحافي الفرنسي عنها فهي تشرف
آباءنا ولا تشرف آباءه . . لقد كانت أوروبا في هذه العصور مجموعة من البهائم
السائمة ، ولولا ما أفاض الإسلام عليهم من خير وبركة لظلوا إلى اليوم كالأنعام
أو أضل سبيلاً .

إن الحضارة الإسلامية علمتكم من جهل ، وأنقذتكم من فوضى ، فماذا حدث
لما مالت الريح إليكم وأصبحت الدولة لكم ؟ .

أيتهم إلا أن تبنوا على أنقاضنا ، وصيغتم أرجاء الدنيا بدمائنا . وهكذا
يصدق فينا وفيكم قول القائل :

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح !
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح !
إن الاستعمار المغتر الآن بقوته المعتز بسطوته ستخبو بعد قليل ناره ،
ويومئذ تحاسب الإنسانية من دمروا عليها حاضرها ومستقبلها .

أبواب الكتاب

المقدمة

مكمن الداء

بين الشورى والاستبداد

الأديان والحريات ...

القتال

الرقيق

أشعة الحرية

عبر من الماضى

خاتمة

المحتوى

- ١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
- ٢ - المناهج الاشتراكية .
- ٣ - المفترى عليه .
- ٤ - الاستبداد السياسى .
- ٥ - تأملات في الدين والحياة .
- ٦ - من هنا فاعلم .
- ٧ - عقيدة المسلم .

تحت الطبع

- ١ - خلق المسلم .
- ٢ - في موكب الدعوة .